سلوى بكر

قصص قصيرة

عن الروح التي سرقت تدريجيا



عن الروح التي سُرقت تدريجياً

سلوى بكر

الأعمال الإبداعية

2000

عن الروح
التى سُرقت تدريجياً

لوحة الغلاف

اسم العمل الفني: وجه شعبى
التقنية: ألوان زيتية على ورق
المقاس: ٢٤ × ٣٣ سم

محمد سيد توفيق (١٩٤١ -)

مثّال متميز تخرج فى كلية الفنون التطبيقية عام ١٩٦٣، قسم النحت، أقام العديد من المعارض، وحصل على عدة جوائز، أهمها الجائزة الأولى فى العيد الذهبى لصالون القاهرة، جائزة مختار للنحت، معرض الانتفاضة جائزة أولى. حصل على منحة تفرغ لمدة أربعة عشر عامًا ونصف. له مقتنيات فى متحف الفن المصرى الحديث، متحف تيتو، دار الأوبرا المصرية، قصر المؤتمرات.

تميز الفنان بتماثيله الخشبية التى أتقن نحتها بالمطرقة والأزميل والصنفرة والمبرد، يعالج كتلة الخشب فى دقة ورقة ورشاقة وحس مرهف وحساسية بالغة.

واللوحة المنشورة على الغلاف واحدة من لوحاته الزيتية، أنجزها بعد مشواره الطويل مع النحت، فأظهر فيها خبراته المكثفة، وحرصه على تلخيص ماتراه عيونه فى الأحياء الشعبية، حيث الزخارف وفنون الخرط والحفر والصدف ومعالجة الجلود، ومواكب الطرق الصوفية والأجواء الفنية الشعبية.

محمود الهندى

عن الروح
التى سُرقت تدريجياً

سلوى بكر



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الإبداعية)

عن الروح التى سرقت تدريجياً

سلوى بكر

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :

د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم

«كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة» تلك الصيحة التى أطلقتها المواطنة المصرية النبيلة «سوزان مبارك» فى مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة» والذى فجر ينابيع الرغبة الجارفة للثقافة والمعرفة لشعب مصر الذى كانت الثقافة والابداع محور حياته منذ فجر التاريخ.

وفى مناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق المشروع الثقافى الكبير وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التى أصدرت فى سنواتها الست السابقة «١٧٠٠» عنواناً فى حوالى «٣٠» مليون نسخة لاقت نجاحاً واقبالاً جماهيرياً منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى «٣٠٠» ألف نسخة من بعض إصداراتها.

وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى فتبدأ بإصدار موسوعة «مصر القديمة» للعلامة الاثرى الكبير «سليم حسن» فى «١٦» جزءاً إلى جانب السلاسل الراسخة «الابداعية والفكرية والعلمية والروائع وامهات الكتب والدينية والشباب» لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذى تقوده السيدة: سوزان مبارك نحو مصر الأعظم والأجمل.

د. سمير سرحان



كل ذلك الصوت الجميل الذي يأتي من داخلها

— ١ —

بدا كلّ شيء طبيعياً ، وفقاً لطقوس اليوم المعتادة . الحجرات مرتّبة ونظيفة ، الأطباق على المائدة تنتظر الطعام ، بينما صوت المذياع الخفيض يثرثر بأنباء مابعد الظهيرة ، التي لاتتغير عادة ، لكن عبد الحميد شعر أن ثمّة قلقاً يهيمن على زوجته ، ويجعلها تدسّ رأسها بين كتفيها ، أكثر من المعتاد ، وهي تزدرد الطعام ، ولا تجاريه في الكلام ، كما يجب ، فسألها :

ــ مالك ياسيّدة ؟!

ــ أبداً .

ردت بوجوم ، وذهبت إلى المطبخ متذرّعة بأنّ الشاي فار من الإبريق على النار ، لكنّها لما عادت بدت أشدّ اضطراباً ، حيث وقع غطاء الإبريق على الأرض ، بينما كانت تهمّ بصبّ الشاي في الأكواب . عاود عبد الحميد سؤالها عمّا بها بلهجة مستنكرة ، فهمست له بحياء ، أنها تريد أن تفاتحه في موضوع ، لكنها خجلة .

« خير ؟! » قال ، ثم أشعل سيجارة مخمناً الخبر ، ستطلب فلوساً طبعاً ،

وتتذرع بأمر طارىء ، أو ستحاول إقناعه بزيادة المصروف الشهري ، فليس من موضوعات أخرى خاصّة ، يمكن أن تخجل سيّدة من طلبها غير هذه !؟ .
كشّر عن أنيابه ، عاقداً مابين حاجبيه ، محركاً رقبته يساراً ويميناً ليطقطقها ، مستعداً لمعركة لابد واقعة بينهما ، قرر أن يخرج منها منتصراً ، مهما اشتد أوارها ، فلن يدفع مليماً أحمر واحداً ، زيادة عما يدفعه للبيت كل شهر ، حتى لو شافت سيّدة حلمة أذنها . رشف رشفة من الشاي الداكن ، المائل للسواد ، وقال لها من بين أضراسه :

ــ قولي :

من قرار عميق في حارات سيدة دفع شجاعتها لتستقر على لسانها ، وتنطق بما تودّ قوله ، لكن الشجاعة كانت قد انزلقت سريعاً إلى قاعها من جديد ، وخرج صوتها ضعيفاً بلا سند :

ــ أصل الموضوع هو أني اكتشفت إني ...

ــ حامل ؟!

وقف الزوج صارخاً ، كمن فوجيء بجلوسه عفواً على خازوق ، وخرجت منه « معقول ؟! » مزفوفة برذاذ الانفعال .

معقول أن تكوني حامل ياسيّدة من جديد ؟! يا خيبة ، وتربة أمي لأجعل نهارك ليلاً ، لو طلع الموضوع جدّ ، لأني زهقت من العيال وحملهم ، وجيبي فارغ ، يعني لا خلفه ولا إجهاض وتصرّفي بشاطرتك .

هرش ما بين فخذيه ، وسار كالمجنون مقترباً من النافذة التي تطل على الشارع المفعم بضجيج الناس والسيارات ، وفكر مغتاظاً فيما يمكن أن يفعله معها . أيضربها ؟ أيطرحها أرضاً ، ويركلها بقدميه حتى تموت ، وتُسقط مابأحشائها ، أم يفتح النافذة عن آخرها ، ويلقي بها خارجاً . ولولا السيجارة التي كادت تحرق اصبعيه ، فعاد لدفن عقبها في المطفأة ، ربما ماوجدت سيدة فرصة ــ بعد أن استقلت شجاعتها مصعداً لتصل إلى لسانها ــ لتقول له :

ــ بلا حمل بلا كلام فارغ ، الموضوع أن صوتي أصبح جميلاً جداً .

ـ سمّر عبد الحميد نظراته عليها لثوان ، ظل خلالها حائراً ، ثم انفجر ضاحكاً ضحكاً هستيرياً ، كمن سمع لتوه نكتة لانهاية لها ، بينما دفقات الدم تتصاعد بحدة إلى رأسه ، فتجعل وجهه المنتفخ أشبه ببالون أحمر على وشك الانفجار ، وبقيت قسماته وأسنانه تتبادلان الحركات في موجة مستمرة من الانفعالات ، لم يوقفها إلا صوت زوجته الغاضب :

ـ إسمع الكلام ، الأول .

جلس . فأخذت تحكي له ماحدث لها على وجه التحديد ، فبعد مغادرته المنزل في الصباح إلى شغله ، وبعدما ذهب العيال للمدارس ، بقيت هي وحيدة كعادتها في البيت ، وشرعت في قضاء أشغالها ، الكنس والمسح والطبيخ وترتيب الحجرات ، ثم انها بعد أن أذن الظهر قالت لروحها : « فلتدخلي الحمّام يابنت وتصبي على جسمك سطل مياه ، ينعشك وتزيل به الوساخة . لكن بعد أن خلعت سيّدة هدومها ، وغسلت رأسها مرتين ، وبينما كانت تزيل الصابون عن عينيها ، خطر لها أن تغني لتسلّي نفسها كالعادة ، وما أن شرعت في أغنية « أحب عيشة الحرية » ، حتى شعرت وكأن شخصاً آخر دخل عليها الحمّام ، وبدأ يغني بدلاً منها ، لأن الصوت لم يكن صوتها الذي تعودته ، بل كان صوتاً جميلاً ، رخيماً ، لايمت لصوتها بصلة ، فما كان منها إلا أن صبت على عينيها الماء لتزيل الصابون عنهما بسرعة ، وبحلقت في الحمام ملتفتة بحثاً عن ابن آدم أو أي مخلوق آخر ، وهي تسمّي بالله وتستعيذ من الشيطان ، لكن نظراتها لم تصطدم إلا بالشبّاك الوحيد المغلق بإحكام ، ومرآة الحوض الموضوعة على رفها فرش الأسنان ، وملابسها النظيفة المعلقة على مسمار الباب ، التي أخرجتها لتوها من الدولاب ، فتشهدت وسكتت معاودة الاستحمام ، فلما تيقنت أن لاصوت معها غير صوت الماء المنسكب على جسدها ، عاودت الغناء من جديد « أحب عيشة الحرية » ، فخرج الصوت منها أكثر جمالاً وصفاء وقوة ، فتسمّرت الليفة في يدها على فخذها ، الذي كانت قد بدأت في دعكه ، وبسملت ، وتعوذت من الشيطان الرجيم ، .ورغم اعتقادها بأنه لايوجد عفريت إلا ابن آدم ، إلا أنها خافت وتسارعت دقات قلبها ، فنادت على نفسها بصوت خفيض : « ياسيّدة ، ياسيّدة » ، فأتاها أيضاً صوت غير

صوتها الذي تعرفه ، وكان جميلاً أيضاً ، فراحت تعلّي الصوت أكثر ، وتنغّمه : « ياسيده» ، ياسيده» » ، وقد انتابتها حالة من النشوة والفرح الشديد ، لكنها انتبهت فجأة : « ربما سمعني أحد ، أو أنك رجعت إلى البيت ياعبد الحميد ، لأي سبب من الأسباب ، وسمعتني أنادي نفسي ، فتظنّ أنّ عقلي طار ، أو جرت لي لوثة ، فسكت وخلّى الرعب لساني حطبة ناشفة ، وأسناني خبطت على بعضها ، وقلت لروحي : يمكن أن تكون حكاية العفاريت حقيقة ، وبقيت أقرأ في سري « قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق » لحين ما خلصت ، ونشّفت جسمي بالفوطة ، ومن ارتباكي لبست الجلابية خلف ، خلاف ، وفتحت الباب ، وخرجت أجري إلى الشباك ، أبصّ منه على الناس في الشارع وأتآنس ، ولما روحي رُدت ، وارتحت ، رحت ، قاعدة على الكنبة ، أسرّح شعري ، وبعدها ، وكأني سمعت هاتفاً ، لقيت نفسي ، من جديد ، أغني « يا حلاوة الدنيا يا حلاوة » ، فتصور يا عَبْد ، لقيت صوتي أحلى وأحلى ، صوت كأنه طالع من الجنّة ، صوت يسحر ولا مثيل له في الدنيا أبداً ، وبصراحة ، انبسطت وارتحت ، وقلبى زال عنه الخوف ، لأني شعرت أن من المستحيل أن يكون الصوت صوت جن ، فهو صوت أنسيّ ، وطبيعيّ خالص ، لكنه مختلف كثيراً ، وغير صوتي القديم .

ثم أنها قالت له وهي تنظر فى عينيه بطيبة ، ورضا عميقين :

— إسمع والنبي ياعبد الحميد .

وهّمت أن تغنّي ، لكن عبد الحميد أسكتها بنظرة حازمة ، وكأنه لم يسمع ماقالته أبداً ، ثم سألها إن كانت قد أخبرت أحداً غيره بهذا الموضوع ، فلما استنكرت استنكاره ، وأكدت له أن الحكاية حدثت منذ ساعات قليلة ، وأنها لم تقابل أيّ مخلوق سواه بعد خروجه في الصباح ، تنهّد بارتياح ، وطلب منها نسيان الأمر ، و« إياك تفتحي السيرة مع أي كائن ياسيّدة ، وخصوصاً العيال » . فغضبت لأنه لايصدقها ، ثم أنها حلفت أغلظ الأيمان لتؤكد أن ماقالته قد حدث بحق وحقيق ، وأنها لاتشكّ فى العفاريت لأنها ، منذ دخلتها في البيت قبل عشرين سنة ، ماشافت واحداً منهم ، وتجمّعت الدموع في عينيها

وهي تنفي له بشدة أن يكون عقلها قد خف أو جرى لمخها أي شيء .

جلس عبد الحميد على الكنبة ، وطلب منها أن تعمل له قهوة بسكّر خفيف ، وبينما هي تدخل رجليها في خفها المنزلي ، وتهم بالذهاب ، صعبت عليه حالها ، وقال لها :

ــ اسمعي ياسيّدة . أنت فتّ الأربعين ، وعندك أربع عيال ، يعني كلامك لتّ فارغ ، يقلل من قيمتك ، ويجعلك مضحكة قدّام الصغار ، فما بالك لو سمعه أي إنسان واع ؟! ، ثم افرضي أن كلامك صدق ، فما معناه ؟! ، وناوية تغنّي مثلاً ؟! ، تصيري مطربة ؟! ، أما حكاية والله !.

ضحك بارتياح لأنه رأى الموضوع بسيطاً ،وبعيداً عن مخاوفه ، التي توقعها ، ثم أنه لطمها على مؤخرتها مازحاً ، وهمس لها : « بعد القهوة تعالي نتمدد في السرير مع بعضنا . »

ــ ٢ ــ

سارت الأمور ، بقية اليوم ، سيرها المعتاد ، وكادت سيدة تنسى ماحدث لها عند الصباح ، حيث ظلّت تنجز شؤون الجزء الثاني من النهار بحماسها المعتاد ، فطبّقت الغسيل ، ودارت بالشاي على العيال وهم يستذكرون دروسهم ، واقتنصت نصف ساعة للفرجة على المسلسل التليفزيونى ، ولما عاد عبد الحميد من المقهى ، الذي كان قد نزل إليه بعد الغروب ، أعدت له العشاء مع الأولاد ، فمازح منهم من مازح ، ووبخ من أراد توبيخه ؛ لكنها في المساء عندما اختلت بروحها ، بعد أن غاب عبد الحميد في النوم ، فكّرت حائرة فيما ستفعله حقّاً بصوتها ، هذا الصوت الجميل ، الذي اكتشفت فجأة أنه مدفون في داخلها ، كالذي اكتشف كنزاً عجيباً ولايدري ماالذي يمكن أن يفعل به . أخذت تنشّط فكرها ، فكانت تأتيها إجابة منطقية وحيدة دوماً : الصوت الجميل خلق للغناء . فلماذا لاتغنّي ويسمع كل الناس صوتها ، وراودها شعور بأنه من العدل أن يسمع الناس صوتها ، وأنه لا علاقة للصوت بالعمر ، فما المانع أن يسمع الناس صوت الإنسان بصرف النظر عن عمره ووضعه ، سواء أكان رجلاً أم امرأة . كانت قد اقتنعت تقريباً بهذه الفكرة ، فتملكتها رغبة

عارمة في أن تجلس في الفراش وتغني « ياحلاوة الدنيا ياحلاوة » فهبت جالسة ، وبينما هي تشرع في فتح فمها لتبدأ ، تقلّب عبد الحميد في الفراش وأحس بها ، فنظر إليها بقلق ، وسألها :

ـــ مالك ياسيّدة ؟!

فقالت أنها ذاهبة إلى المطبخ لتشرب ، لأن ريقها ناشف بعض الشيء .

ـــ٣ـــ

جن جنون سيّدة ، لما بدأت تغني ، في صباح اليوم التالي ، وهي تقف أمام الحوض ، لتغسل المواعين المتخلّفة عن وجبة الإفطار بعد خروج عبد الحميد والعيال ، فعاودها الصوت الجميل مرة أخرى ، حيث بدا خلاباً ، سماوياً ، فيّاضاً بالقوّة والنقاء ، وداخلها شعور بأنها كائن آخر ، لاعلاقة له بسيّدة التي تعرفها ، سيّدة التي تمسح وتكنس ، وتلفّ رأسها في منديل كلّ يوم ، لكونها لاتجد الوقت الكافي ، الذي يسمح لها بأن تحطّ مشطاً في شعرها . شطفت يديها من الصابون بسرعة ، وجففتهما بطرف قميص نومها ، الذي لم تخلعه بعد ، وجرت إلى المرآة ، فوقفت أمامها ، وغنّت : « أحبّ عيشة الحرية » فتجلى الصوت من جديد قوياً ، نقياً ، واضحاً ، كقطعة من الجوهر النفيس . راقبت نفسها ، شفتيها ، وهما تتراقصان بنشوة ، الكلمات المنغمة ، عينيها المشعتين بالحماس والفرح ، وجنتيها المشرّبتان بحمرة دماء غريبة ، خالت أنها تفجّرت من ينابيع خفيّة بجسدها ، حاجبيها اللذين يتقابلان وينفرجان في حركات منظومة ويقودان ملامح الوجه في تناغم بارع وكأنهما يدان ماهرتان لقائد فرقة موسيقيّة رائعة .

شعرت أنها جميلة ، ربما لأول مرّة منذ زمن بعيد . داخلها هذا الشعور مجدداً . توقفت تنظر إلى وجهها ، استنكرت إهمالها لحاجبيها وتركهما دون رعاية وتنسيق ، وخجلت من اكتشافها لشاربها الخفيف أسفل أنفها ، وحزنت لأنها تتجاهل شعرها إلى هذا الحد ، ثم أنها شعرت بغضب من نفسها ، فلماذا تترك حالها على هذا النحو ، بينما هي تمتلك هذا الصوت الجميل الذي يأتي من

داخلها . توقّفت . قرّرت : « لكي أغني مفروض أن أشعر بالجمال ، أي والله مفروض » .

ـ ٤ ـ

ارتدت سيّدة ملابسها بسرعة ، فقد كان عليها ، ولابد ، أن تنزل للشارع لتشتري الخضار والعيش قبل رجوع عبد الحميد والعيال إلى البيت ، جلبت كل الطلبات ، وذهنها مشغول بالموضوع إياه ، لم يكن لديها ، بالطبع ، أية خطة تتعلق بكيف ستغني ومن أين تبدأ ، وكيف ستواجه عبد الحميد بهذا القرار ، فكرت في الذهاب إلى أية صديقة لتبوح لها بالسر ، كما تفعل النساء في الأفلام ، لكنها اكتشفت ، ولأول مرة في حياتها ، أن ليس لديها صديقة واحدة ، إنسانة حميمة ، قريبة إلى قلبها ، غير أمها وأختها عواطف ، اللتين كانت قد استبعدتهما من البداية ، بسبب علمها المسبق بموقفهما ، لو حكت لهما الموضوع ، وهو السخرية منها ، والضحك على كلامها وتحويله لنكتة ، ونشرها أمام كل من دخل عليهما من الأقارب ؛ فكّرت في أم حسن جارتها ، لكن أم حسن رغم علاقتهما الطيبة جداً ، عمرها ، ما كان بينها وبين سيدة أسرار . وشعرت لأول مرة في حياتها بالحقد على عبد الحميد ، لأن له أصحابا يقعد معهم في المقهى ، وسيّد اسماعيل صاحبه ، الروح بالروح ، الذي يمكن أن يكون حكى له أسراراً ، عمره ماقالها لها ، رغم كونها وليفته وولدت منه أربع بطون .

ظلت انفعالاتها متلونة ، بألوان متباينة ، حتى وهي تدخل دكان عيسى البقال لتبتاع منه جبناً ومكرونة وعشر بيضات ، ولم يكن عيسى العجوز بحاجة للتدقيق حتى يلاحظ اضطرابها ، فسألها : مالك مرتبكة في الصبح ياست سيّدة ؟ .. وقبل أن ترد قرر أنّه يعرف ، فالحياة صارت صعبة ، والغلاء غول سارح في كل شيء بلا ضابط أو رابط ، بينما الناس تمشي وهي تكلّم أرواحها من الغلب وقصر اليد (طبعاً كان عيسى قد لاحظ أنها تكلم نفسها قليلاً) ؛ ثم قال لها ـ وهو البقال القديم الذي يتعاملون معه منذ زمن طويل ، وتربطه بهم علاقات جيرة ومودّة ـ أنه عارف أن عبد الحميد يسعى على قدر مستطاعه ،

ليسدّ طلبات العيال ، وأن عليها أن تطوّل بالها عليه ، غير أنه تعجّب لما وجدها تنفجر باكية ، فجأة ، وتنشج كمن مات له ميت ، فسحبها عيسى من يدها ، وأجلسها على كرسي ، ثم فتح لها كازوزة وقال لها : روقي واخزي الشيطان .

كان الوقت صباحاً ، والدكان لم تؤمه الزبائن بعد ، فاقترب الرجل منها هامساً بجدّ : « حصلت مشكلة بينك وبين عبد الحميد لا قدّر الله ؟ » ، فصعبت عليها نفسها أكثر ، وانتحبت من جديد ، فلما استعادت نفسها قالت له : « اسمع ياعمّ عيسى ، محتاجة أن أكلمك في موضوع ، خصوصي ، بعض الشيء ، بشرط ، تحاول تفهمني ولا تتكلم مع عبد الحميد بشأنه ، لأنه حلف يميناً بالطلاق أن « أكفي على الخبر ماجوراً » وأمتنع عن الكلام مع أي مخلوق بخصوصه » .

شعر عم عيسى أن الموضوع خطير فعلاً ، وتملكته رغبة لاتقاوم في سماع سرّ عائلي ، يخصّ بعضاً من سكان الشارع . سرت في روحه متعة المقبل على معرفة نميمة جديدة لابد أن يوظفها سريعاً ، فجرّ كرسياً واقترب منها جالساً ، ليسمع الحكاية دون أن يفوته حرف واحد منها ، فقالت كمن يدلي بسرّ رهيب :

ــ حصل أني اكتشفت صوتي .

أخذت تقصّ عليه ماحدث لها ، وماكان من كلام بينها وبين عبد الحميد بخصوصه ، لم يضحك الرجل ، أو ينبس ببنت شفة ، كما يقولون في الكتب فلما انتهت من حكايتها ، وقالت له ، وهي تبتسم خجلة ، إنها مستعدة لأن تسمعه صوتها الجميل ، ليتأكد بنفسه من كلامها ، نظر إليها بتمعن مشفق ، وقال لها :

ــ اشربي الكازوزة ياسيّدة !.

لم تشرب الكازوزة ، بل أخذت مااشترته منه ، وذهبت ، وعندما عاد عبد الحميد بعد الظهر ، وأثناء تناولهم للغذاء ، قال لها انه اشترى كبريت ، وهو راجع إلى البيت ، من دكّان عيسى البقّال ، وسيذهب إلى الطبيب عند المساء ، ويجب أن ترافقه .

لما وصلا عيادة الطبيب النفسي ، كانت سيّدة مقتنعة بعض الشيء بفكرة زوجها ، الذي قال انه يحبها ، ولايريد إلا مصلحتها ومصلحة الأولاد ، وان المرض النفسي مثله مثل أي مرض آخر ، ولا عيب في ذلك ، بل وقابل للشفاء ، لكن المهم أن يعالج بسرعة ، وفي بدايته ، وانها والحمد لله بخير ، لكن حكاية الصوت ربما يكون سببها الإرهاق من شغل البيت ، أو أي مشكل مخفى جواها ولاتشعر به ، لأن داخل كل إنسان بحر وسيع لاقرار له ، والنفس سرّها عميق ، وسبحانه وحده العارف بما في داخل كل إبن آدم ، المقصود،الإنسان صعب أن يعرف نفسه ياسيّدة . والطب جعل للظروف الصعبة ، ثم إني ياسيّدة ، رغم تعليمي البسيط ، مؤمن وموحد بالله ، لا أؤمن بحكاية الجنّ والعفاريت ، لأن ربنا قال في القرآن : « وجعلنا بينكم وبينهم سداً منيعاً » ، ثم ، ياأختي ، خلينا نجرب ، القصد ، غرامة عشرة جنيهات من ضمن الفلوس الطيّارة طيران العصافير ، ولا عارفين نتحكم بها ، لكن يمكن أن يكون فيها الشفاء بإذن الله ، وكل شيء يرجع لطبيعته ، وتستريحي ، ثم إنك الصبح قلت لعيسى البقّال ، لكن بكرة أو بعده ، يمكن ، غصباً عنك ، أن تقولي لغيره ، أو يحصل شيء يخلّي صورتنا قدّام الناس مسخرة ، ويطلع عليك كلام ، بدون داع ، وأنا ، ياسيدة ، لولا أني باقٍ عليك ، وعلى العيال كنت صهينت على الموضوع ، وسكتّ ، لكنّك عارفة بمعزّتك عندي ، لأنك أمّ أولادي وشريكة عمري .

دخلا مكتب الطبيب ، وجلسا ، وبدا لها الرجل الذي سألها عن مشكلتها ، متبرماً ، ومتأففاً ، وقلقاً ، وفي عجلة من أمره ، فبدأ عبد الحميد ، يحكي له القصّة باختصار ، لكن الطبيب طلب منه ، وهو ينقر بقلمه على زجاج مكتبه ، أن يتركها تحكي ، فقالت سيّدة كل ماعندها منذ اللحظة الأولى لدخولها الحمام ، وحتى حديثها مع عيسى البقال ، فلما أكملت ، وهي التي لاحظت أن الرجل استمع إليها باهتمام دون مقاطعة ، سألته ، وهي تبتسم مسرورة ، لشعورها بأنه تفهم موقفها :

ـــ ممكن ، أسمعك غنوة صغيرة ، يادكتور ؟.

لم يظهر أي تعبير بالاهتمام على ملامح الطبيب ، الذي يبدو أنه اعتاد مثل هذه الأشياء ، لم يبتسم ، لم يكشّر ، لم يردّ . فقط ، كتب كلمات بلغة أجنبية في ورقة ، ثم أعطاها للزوج وقال له : ثلاث حبات يومياً من النوع الأول ، بعد كل وجبة ، وحبّة كلّ مساء قبل النوم ، ثم التفت إلى سيدة قائلاً : ابتعدي عن أي شيء يسبب لك التوتر ، ولاتبقي بمفردك أبداً ، أديري المذياع وأنت في الحمام ، كلي جيداً ، ولكن حاولي أن تمشي وتنقصي وزنك لأنك سمينة ، وداومي على الدواء ، وعندما تشعرين أنك متضايقة ، وحالتك سيئة ، تعالي بسرعة إلى العيادة ؛ ثم وقف ومد يده إليها قائلاً :

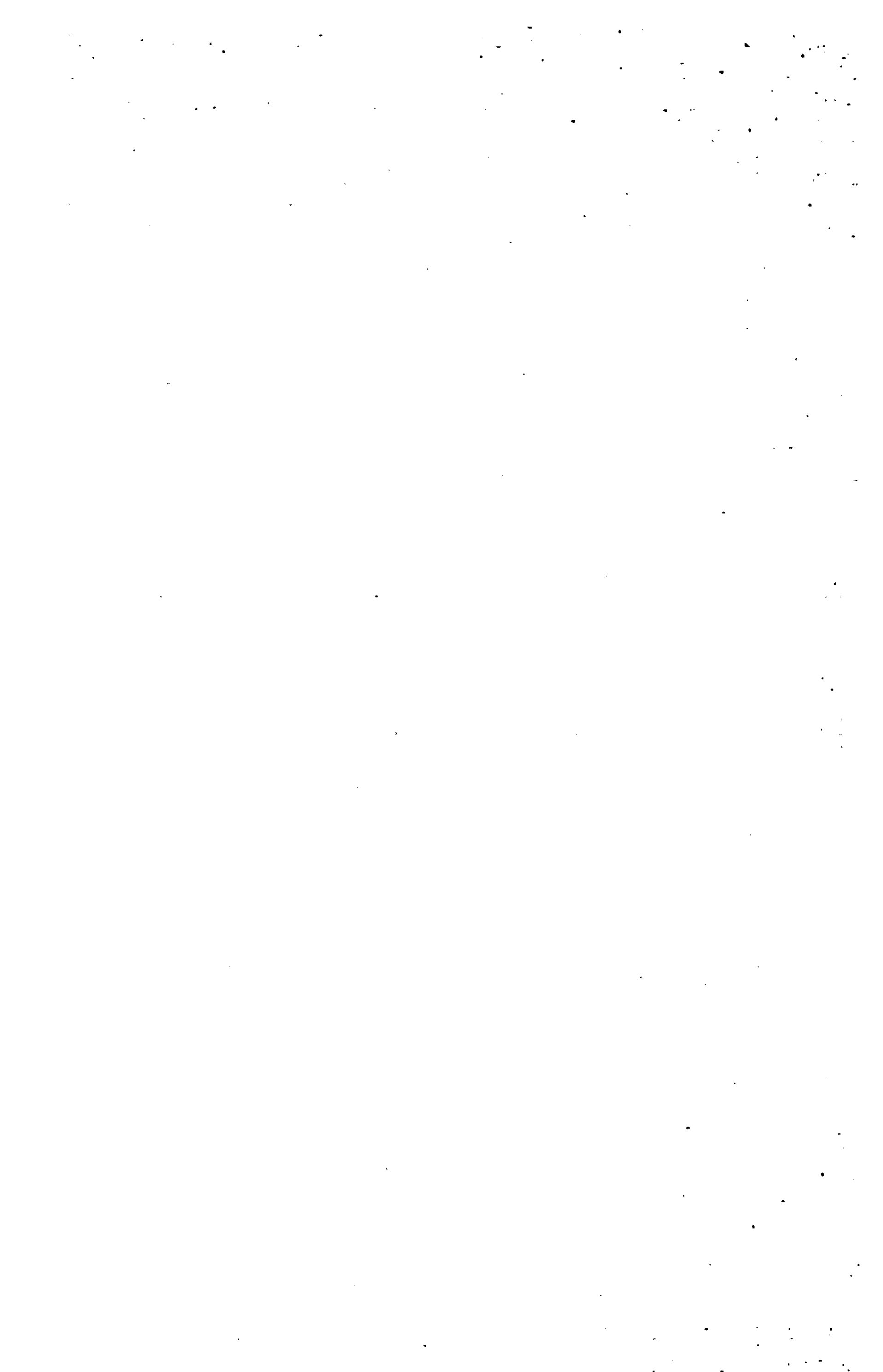
ـــ أهلاً .

ـــ ٦ ـــ

خرجوا كعادتهم ، وبقيت هي ، وحيدة في البيت ، قامت متكاسلة دون حماس تلمّ صحون مابعد الإفطار ، التهمت ماتبقّى من طعام ، في الأطباق ، وهي تقول لروحها كالعادة : « حرام أن أرمي لقمتي الفول في الزبالة ، وفتات الجبن لايستحق أن أبقي الطبق له » ثم أنها أعدّت لنفسها كوباً من الشاي ، راحت ترتشفه مع قضمات من كعكة جافة بقيت وحيدة على طاولة الطعام ، فلما شعرت بالامتلاء الزائد قامت تجرجر جسمها لترتب الحجرات وتكنسها .

وبينا هي في حجرة النوم ، وجدت نفسها وجهاً لوجه ، أمام المرآة ، تأملت نفسها في قميص النوم : وجه أصفر شاحب ، رغم امتلائه ، ونظرات بلا حيوية ، وملامح بلا تعبير ، كمن غابت عنه الحياة ، استجمعت نفسها ، وحاولت أن تغني « ياحلاوة الدنيا ياحلاوة » ، جاهدت ، لم يخرج صوتها أبداً ، تنحنحت ، جربت « أحبّ عيشة الحرية » ، لكن هيهات أن يأتي الصوت الذي انحبس في حلقها ، وكأن فلينة هائلة قد سدّته بإحكام ، راحت تتنحنح أكثر ، أخيراً قررت أن تقول شيئاً آخر « ياليل ، ياعين » ، فاجأها صوتها القديم ، الذي عرفته منذ أن وعت الحياة ، صوتها هي ، مبحوحاً ، ضعيفاً ، يخلو من كل جمال وصفاء وقوة ، تأملت نفسها مرة أخرى ، كان

وجهها هو الوجه الماضي ، الوجه الذي عرفته من زمان ، ابتسمت بمرارة ، وهزت رأسها بأسف ، ثم أنها حملت علبتي الدواء لتفرغهما في المرحاض .







عن الروح التي سُرقت تدريجيًا

يوم حريق الأوبرا المصرية ، على وجه التحديد ، تزوج شاكر من سامية جارته في الشارع ، وزميلته في المدرسة الابتدائية المشتركة عندما كان تلميذاً صغيراً ؛ ورغم أن خبر الحريق ، الذي تلقاه قبل زفافه بساعات لم يؤثر في أحد من المدعوين ، إلا أن شاكر تكدّر قليلًا ، وشعر بحزن داخلي قلل من ابتهاجه بهذا الحدث الخطير في حياته ، لأنه كان يحب سامية بالفعل ، وينتظر اللحظات التي تصبح فيها زوجة له ، يجمعهما سقف بيت واحد ، حتى آخر لحظات العمر .

ولعل سبب حزن شاكر ، كونه يختلف قليلاً عن معظم ضيوف فرحه ، فهو محب للثقافة ، متذوق للفنون ، التي شاهد بعضها على مسرح الأوبرا ذاتها ، ناهيك أنه كان يحب المبنى ذاته ، ويشعر بالفخر لأنه أتيح له أن يجلس على مقاعده المخملية الوثيرة ، وأن يسير على أرضه الخشبية المكسوة بالسجاد الثمين ، وهو الشيء الذي لم يكن متاحاً لأمثاله من قبل ، يوم كان يُطلَقُ على ذلك المبنى « دار الأوبرا الملكية » ، ثم أن حزنه زاد عندما فكرّ : أليس ذلك المبنى شاهداً على أحداث وأزمان مضت ؟ ، أليس من الخسارة تركه يغيب عنا

على هذا النحو المؤسف ولسبب غير مفهوم ؟!.

ورغم أن شاكر لم يكن من المتطيرين أبداً ، ولم يؤمن قطّ بالأقدار والمصادفات ، إلا أن إحساساً خفياً ، ظل يلازمه دوماً ، ولسنوات طويلة ، امتدت حتى الآن ، بأن هناك ارتباطاً بين ذلك الحدث ، وصيرورة الحياة التي يعيشها بعد ذلك اليوم ، علماً بأن علاقته بسامية ظلت طوال الوقت ، ومنذ اللحظة الأولى لدخولها بيته ، الذي هو في الحقيقة بيت أمه الأرملة ، علاقة طيبة حميمة ، فسامية سرعان ماخبرت عاداته ، وأسلوبه في الحياة ، المتمثل في الهدوء والنظام ، وتمضية الأوقات بعد انتهاء العمل في متع إنسانية راقية ، كالذهاب إلى السينما ، إن وجد فيلم جيد ، أو المسرح عندما تعرض أعمال أدبية يؤديها ممثلون ممتازون ، أما في معظم الأمسيات فكانت القراءة هي طقس شاكر الليلي ، الذي سرعان ما اعتادته سامية ، وشيئاً فشيئاً ، أخذت تشارك فيه ، متخلية عن قراءة المجلّات السيّارة والقصص العاطفية المسلّية ، لتلج عالم الكتب الوسيع ، وشاكر يساعدها على التقبل ، والتمعن ، والاستمتاع ، ولم تمض شهور قليلة ، إلا وكان الكتاب رفيقاً دائماً لهما معاً في ساعات ما قبل النوم .

في الفترة الأولى للزواج ، وضع شاكر خطّة لسنوات عمرهما المقبلة ، على ضوء الزيادة المتوقعة في راتبيهما ، بحيث يعيشان ، في يسر ، ويدّخران جزءاً من النقود ، لمواجهة أي طارىء قد يطرأ على حياتهما ، عبر الزمان ، وكانا حتى ذلك الوقت يترددان على دور السينما كثيراً . أحياناً أكثر من مرة في الأسبوع ، إذا ما تصادف وجود أكثر من فيلم جيد ، كما أنهما شاهدا عديداً من المسرحيات الجميلة ، وكان هذا يجعلهما يعودان لمنزلهما وهما في قمة الانبساط والرضا ، وفي الصباح ، كانا يقبلان على عملهما الوظيفي وهما في غاية الانشراح ، حتى أن سامية كانت تتحمل سخافات الجمهور ، في المصلحة الحكومية ، دون توتر أو ضيق ، أما شاكر فكان ، عادة ، يحكي لزملائه في الإدارة ما شاهده بالأمس ، مبدياً وجهة نظره في الفيلم أو المسرحية ، فتثار نقاشات تتفرع وتمتد ، ويشارك فيها ، حتى ، حسن الفراش خلال تقديمه

المشروبات الساخنة والباردة لهم .

وفي أمسيات أخرى لا تنسى ، كانت سامية تقوم بريّ النباتات والزهور الموضوعة في الأصص بالشرفة ، أو تداعب قطهما ، كان شاكر يفاجئها وفي يده تذاكر لحفل موسيقي ، أو فرقة راقصة ، ويطالبها بارتداء ملابسها سريعاً ، لأنهما سيمرّان ، قبل الحفل ، على صديقيهما فريد وخطيبته نجوى . كان ذلك يتكرر عادة ، فيذهب الأربعة لمشاهدة فرقة فنون شعبية ، أو للاستماع إلى مجموعة موسيقية زائرة ، يخرجون بعدها إلى أحد محلات وسط البلد ، فيحتسون شيكولاته مثلجة ، أو قهوة لذيذة ساخنة ، وفقاً لطقس الأيام . وقتذاك ، كانت سامية تبدو دوماً مرتدية ثياباً بسيطة ، وبوجه متجمل بأقل مساحيق ممكنة ، أما نجوى التي كان فريد يهيم بها منذ أيام الجامعة ، فغالباً ما كانت تُدخِلُ نفسها في بنطال داكن ، وتنتعل حذاء بلاكعب تقريباً ، فتبدو جذابة جداً ، بلمعة الذكاء في عينيها ، وشعرها الناعم ، الملموم على هيئة ذيل فرس ، يهتز مع حركة رأسها العصبية ، معبراً بذلك عن جانب من شخصيتها الصريحة الواضحة كانت هذه العادات البسيطة تبدو في عين شاكر كمسرّات أبدية ، لايمكن أن تزول أبداً ، مسرّات تجعله يصيغ لنفسه ، كلما اختلى بها ، تعريفاً بسيطاً للسعادة : امرأة إلى جانبك ، تبادلك الحب والمودة ، وصديق مخلص ، يشاركك الأفراح والأتراح . وماذا يتبقى أيضاً ؟ ، إمتاع الروح والنفس بمباهج سامية تعبر العقل إلى القلب .

كانت الأيام تمرّ ، وشعور يتزايد لدى شاكر بأن السعادة والفرح يتقلصان من حياته شيئاً فشيئاً ، كان يشعر بأن هناك محاولات خفيّة تجري لسرقة اللحظات الجميلة في الحياة ، دون أن يدرك سبب ذلك ، وكلما تزايد لديه هذا الشعور ، كان يتذكر دار الأوبرا على الفور . مرة ، تشاجر مع سائق سيّارة أجرة ، أصر على إسماعة أغنيات مبتذلة الكلمات والموسيقى ، عبر شريط مسجّل ، طوال الطريق ، كذلك ، لازمته عادة تحسس ربطة عنقة بيده ، ومحاولة توسيع عقدتها ، كلما تطلع إلى بنايات ضخمة جديدة ، تشيّد في المدينة ، أما قلقه على نفسه ، فقد أخذ في التزايد كلما شعر بحنين غريب إلى النوم ، أسفل شجرة مورقة لم يعد يلتقيها في طريقه إلى عمله ؛ الأكثر من هذا ،

هو أن فترات خروجه مع سامية صارت متباعدة ، أما فريد ونجوى ، فربما مضت شهور دون أن يلتقي بهما ، أو حتى يسمع صوتهما عبر التليفون ، لأن مشكلة الحصول على شقة يتزوجان فيها ، جعلت فريداً مضطراً للعمل إثني عشر ساعة يومياً ، في وظيفتين مختلفتين ، ورغم أن شاكر يحسب من الأذكياء ، إلا أنه لم ينتبه إلى تسرب أشياء كثيرة ، واختفائها من حياته ؛ ربما كانت عادات ، أو مواقف وكلمات ، فهو لم يعد يبتاع الزهور من الباعة العابرين بالطرقات ، واختفت من حياته عادة التنزه وقت الغروب بجانب النهر ، ثم أنه لم ينتبه إلى اختفاء الأعياد التي كانت تملأ أيام السنة ، حتى أنه عندما كان يقلّب ، بالصدفة ، أوراق مفكرة قديمة ، فيقرأ عيد العلم ، أو عيد الجلاء ، كان يكتفي بالتنهد ، ويستمر باحثاً عن عنوان طبيب ، أو هاتف زميل قديم في العمل .

أيضاً ، تبدلت عادة الذهابُ إلى السينما ، بعادة جديدة لشاكر وسامية : الجلوس أمام التليفزيون مساء كل يوم ، والفرجة على أي شيء ، وكل شيء .

في إحدى المرات ، وبينما كانا يشاهدان فيلماً من خلال ذلك الجهاز الصغير ، قالت سامية لشاكر : « ياه ، المشهد نفسه شفته في فيلم زمان ، فاكر ؟! » . وقتها لم يتذكر شاكر ـــ المهتم بالثقافة بعض الشيء ، وبالسينما كثيراً ـــ اسم الفيلم الذي تعنيه سامية ، لكن ذلك كان مناسبة أثارت في روحه ذكريات جميلة ، تتعلق بالسينما ؛ طقوس الدخول إليها بالهندام المنسق ، والاستقبال المهذب للعامل الذي يدل المتفرجين على أماكن جلوسهم ، بينما روائح عطور النساء ، في مقاعد الدرجة الأولى ، تهبّ بسخاء في أنحاء القاعة ، وعندما يتذكر ذلك ، كان الحنين يأخذ شاكر بعيداً ، فيقترب من سامية ، ويطوقها بذراعيه في رقّة ، بينما تعبر روحه ذكرى قبلة قديمة تبادلاها بعد إطفاء الأنوار ، عندئذ يقول لها هامساً : تعالي نروح السينما بكرة .

لكنهما لم يذهبا أبداً .

... فعندما يأتي بكرة ، وإذ هما يحتسيان شاي مابعد الغداء ، تفتح سامية الجريدة ، وتتصفحها ، بحثاً عن فيلم معقول بين الأفلام المعلن عنها ، وتبدأ في

القراءة ، تجد عناوين مثل « موعد القتلة » ، « التنين الدامي » ، « وكر الأشرار » ، فتسارع بإلقاء الجريدة ، وتزفر قائلة : « أفلام زفت » ، ويسود صمت ، لا يسمع خلاله إلا رشفات الشاي . أحياناً ، يكون هناك فيلم معقول فتقول لشاكر : « نروح حفلة تسعة » ، لكنه يعترض ، ويقترح تأجيلها لليوم التالي ، بدلاً من انتظار الاتوبيس في وقت متأخر عند الخروج ، وحضور حفلة الساعة الثالثة بعد خروجهما من العمل مباشرة ، عندئذ تبتسم سامية رافقة ، وتتنهد برضا ، سرعان ما يزول ، إذ يصرخ شاكر بعد قليل : « يا خبر ، السبَّاك ميعاده بكرة الساعة أربعة لتركيب ماسورة الحمام الجديدة » . أو « ياه ، لازم ، أروح الجمعية ، أشتري اللحم قبل ما يخلص ، بكرة الخميس » . أحياناً ، تكون سامية مبعث الاعتراض : « صعب أن نروح بكره ، لازم استلم كستور البطاقة ، وإلا يروح علينا » ، أحياناً لا تكون هناك مواعيد ولا عقبات ، ولا مشاوير ضرورية بديلة ، فقط يكونان في آخرالشهر .

تطوي الأيام بعضها . يخبو الحماس للسينما ، مثلما يخبو بالنسبة لكل الأشياء الأخرى المماثلة : « ياه ، الدنيا برد ! » ، « معقول ؟! نخرج وننتظر المواصلات ساعة ؟! .. » معقول ؟! تذكرة لفرقة شعبية بخمسة جنيهات ؟! يعملوها في الشيراتون أحسن ! » ، « مجموعة قصص بثلاثة جنيهات ؟! ، اشتريت من السور ، زمان ، عشرين كتابا بجنيهين ! » . كان شاكر يردد العبارة الأخيرة ، وهو يتحسر على سور الأزبكية ، فقد ظل السياج الحديدي القديم المحيط بحديقة الأزبكية جزءاً من روحه وتاريخه الخاص ، كان قد ألف ذلك المكان مذ كان طالباً شاباً ، لم يتخرج من الجامعة بعد ، يتردد عليه بين الحين والحين ، باحثاً في أكوام الكتب الموضوعة عليه ، عن كتاب جيد ، زهيد الثمن ، يُمضي معه ليلته ، داخلاً عوالم أخرى مبهرة ، عبر الكلمات والسطور ، وعندما أنهى دراسته ، وعُيِّن في الحكومة ، كان عليه أن يعبر السور مرتين كل يوم ، في الصباح ، وبعد الظهر ، حيث يخترق الطريق من وإلى بيته الكائن في الحي القريب من وسط البلد ، ورغم أن شاكر مازال في عز شبابه ، إلا أن تحول كل الأشياء الجميلة على نحو سريع ، لتصبح ذكريات ، جعله محملاً دوماً بمشاعر شيخ أرهقته السنون ، وسور الأزبكية أحد تلك الذكريات ، ففي مواجهته ، كان مبنى دار الأوبرا ،

الأبيض البديع ، وكان المرء ، عندما يقف مقلّباً في كتاّب من الكتب الكثيرة المتراصة فوق بعضها ، يستطيع أن يرى بوضوح تمثال ابراهيم باشا راكباً على فرسه ، فيتجسد شعور بأن ثمة ماض كان هنا ، وثمة تاريخ يمضي ويتواصل عبر الزمان ، ورغم أن ذلك السور ، طالما خبأ خلفه عالم الأزبكية السفلي ، بكل ما يضمّه من لصوص ، ومتسولين ، وقوادين ، بالإضافة إلى عشّاق القاع ، صانعي قصص الغرام المستحيلة ، والذين لا يملكون إلا الجلوس على مقعد حجري متشابكي الأيدي ، إلا أن شاكر كان يحبه ، مثلما يحب أي شيء آخر في هذه المدينة ، فهو وجه من وجوهها السرية الغريبة المتعددة ، التي لا تكشف عن نفسها ، إلا كلما أوغل المرء فيها . ساعياً لتحسس ملامحها ، والغوص في أعماقها ، فتقدم وجهها مستوراً ، مبهراً بتناقضاته ، وعذوبته الإنسانية الخاصة .

ومثلما تقلص كمُّ الكتب على السور ، واحتلت أماكنها اللوحات الفجّة ، والصور الملونة السخيفة ، وكل الأشياء الأخرى التي تفسد الروح ، تناقصت الكتب أيضاً في بيت شاكر ، حتى الصحف والمجلات أصابتها سهام التغيير ، فجريدة واحدة « كفاية ، كل يوم » ، مجلة في الاسبوع « معقول جداً » ، وبمرور الأيام ، انضم شاكر لآلاف القراء المتسببين في انخفاض أرقام توزيع الصحف والمجلات في السنين الأخيرة ، أما صلته بالسينما والمسرح ، فقد باتت مقطوعة تقريباً ، بينما أصبح مشدوداً بخيوط قوية غير مرئية إلى جهاز وحيد ، صغير اسمه التلفزيون .

خلال ذلك ، كان كرش صغير يبرز شيئاً فشيئاً لشاكر ، أما سامية ، فقد تفلطح جسمها ، وبات كتلة واحدة ، بلا حدود أو تخوم ، وعندما كانت تُشاهَد في الطريق ، كانت تبدو ، مثلما الجميع حولها ، بشعر كالح مترب ، وحذاء وسخ بلا لمعان ، وبمرور الوقت ، صارت تغطّي شعرها بإيشارب صغير ، تحول ، في النهاية ، إلى طرحة ، تغلف رأسها ورقبتها ، حيث كانت عدوى الملابس الطويلة ، وتغطية الرأس ، تنتشر انتشاراً ، لا يعادله إلا انتشار وباء الكوليرا سنة ١٩٤٧ ، وقد قالت سامية لشاكر ، وهي تضحك ، عندما رآها لأول مرة في حياته على هذا النحو ، حيث بدا الحجم الحقيقي لأنفها الكبير ، وسط ملامح

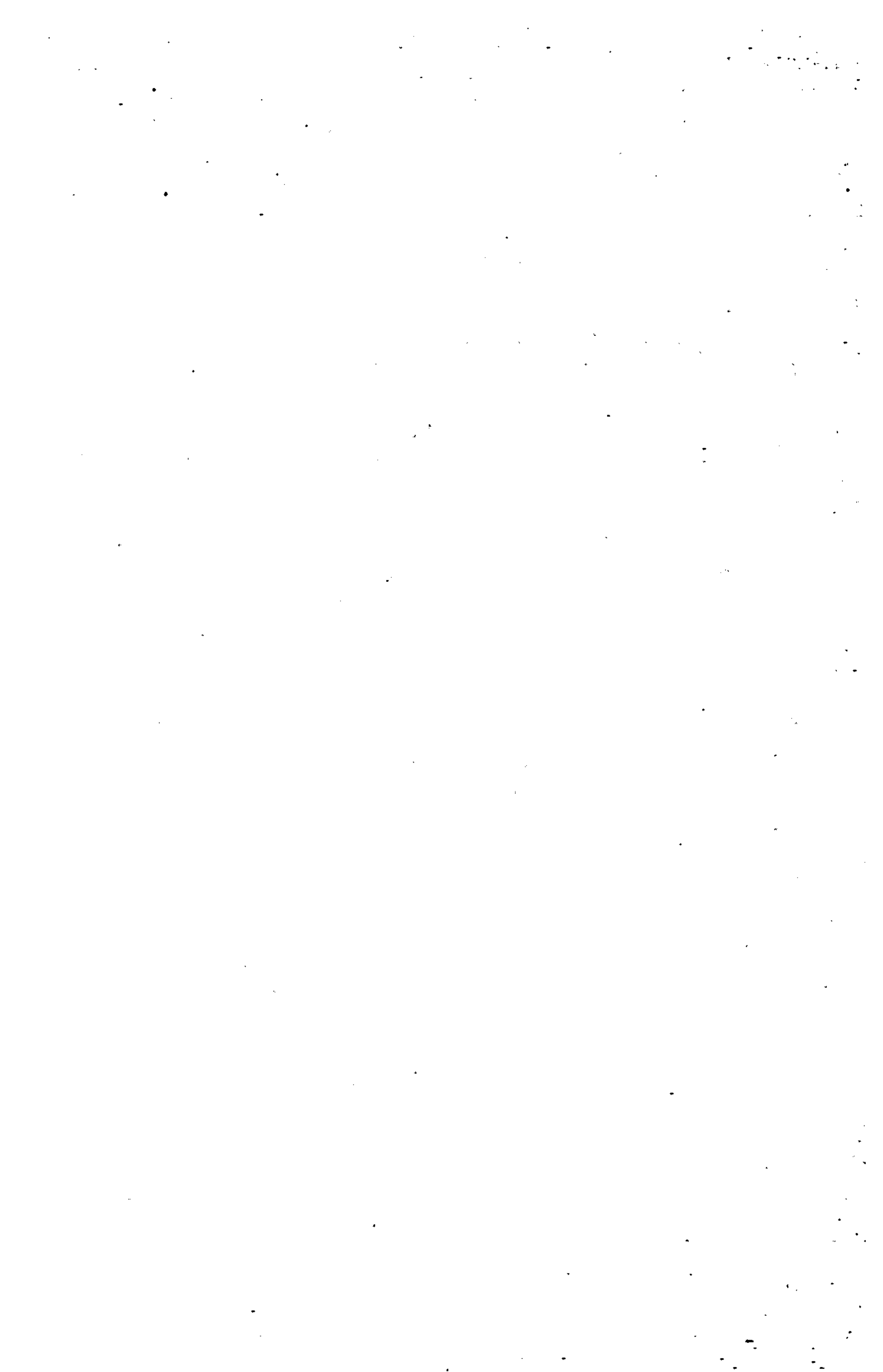
وجهها ، واضحاً :

« أحسن . بدل الفلوس المرمية في قص الشعر وتوضيبه » .

وبفضل اعلانات التليفزيون اليومية ، ناضل شاكر وسامية للحصول على ثلاجة ، وموقد غاز بفرن وشعلات أربع ، وغسالة ، وخلّاط ، وأدوات كهربية وغير كهربية أخرى « لا غنى عنها في البيت الحديث » ، مثلما كانت الاعلانات تقول دوماً .

كما أنهما فرشا الشقّة كلها بالموكيت ، وقد كلفهما ذلك كثيراً ، لكن بفضل الخطط المالية الدقيقة ، والجمعيات المقتطعة من الرواتب ، مع الزملاء ، في المصلحة ، والتي تحقق سيولة لأعضائها ، مرة واحدة في العام ، وفوق ذلك كله ، نظام التقسيط بالفوائد ، بفضل ذلك كله ، استطاع الزوجان ، الموفقان ، شراء أشياء كثيرة ، وإحداث تعديلات في معمار البيت أيضاً ، حيث ارتأيا أنه من الأفضل إقفال الشرفة بحوائط زجاجية ، ذات إطارات معدنية . كان ذلك يعني في الواقع : وداعاً يافل ، ياريحان ، والكلمة نفسها تصح على القط الأليف ، الذي طالما جرت مداعبته بأطراف الخيط « لأنه لا وقت لخدمته ، ولا مجال لتحمل مصاريف أكله » .

ستائر البيت القديمة تغيرت ، أيضاً ، بما يتناسب مع لون الموكيت ، وكل الأشياء الأخرى الجديدة ، وهذه الستائر تختلف كلّية عن ستائر من نوع آخر ، لم يستطع المسكين شاكر أن يراها أبداً ، كانت ستائر من نوع خاص ، تزداد كثافتها يوماً بعد آخر ، فتحول بينه وبين سامية ، فكانا يختلفان كثيراً ، يشعران بضغوط فظيعة تثقل كاهلهما ، لا يعرفان من أين تأتي المشكلات ، وما سببها ، وعندما ينفجر أحدهما أحياناً ، ويتشاجران ، تنتهي المسألة بعد قليل بصلح لابدّ منه ، حيث تستمر الحياة ، فوق الموكيت ، مع الأجهزة ، خلف الستائر ، أمام البيوت العصرية في مسلسلات التلفزيون .



النهر يجري والنجوم نهاري

قالت : نقفل الشبّاك أحسن . قمت وضغطت بأصابعي على الزرّين الضاغطين بالإطار الحديدي ، لكن الشبّاك الزجاجي لم ينزل إلا قليلاً ، وكان الحائل الخشبي معطّلاً ؛ لذلك غطّت المرأة الطفل بطرحتها ، وهي تنظر إليه وتتنهّد ، فقلت لها : تعالي مكاني لأن الهواء سيصبح شديداً عليه عندما ينطلق القطار . تبادلنا مواقعنا بسرعة ، ولاحظت أن الشرطي ، صغير السن ، الجالس بجواري ، قد بدأ ينام بعد أن ظل لفترة يحاول قراءة اللوحة المعدنية الخاصة بتعليمات الخطر ، والتي كانت مثبّته في مواجهته بالقطار .

ماكدنا نستقرّ في مكانينا الجديدين المتقابلين ، إلا وكانوا قد أعلنوا ، عبر إذاعة المحطّة ، أن القطار الذي نركبه قد تعطّل ، وأن الآخر الموجود على الرصيف المقابل هو الذي سيغادر الآن . نبّهت المرأة إلى ذلك ، فسحبت ثديها من فم الرضيع ، الذي كان قد بدأ يرضع ، وأسقطت لحمها في جلبابها ، وقامت حاملة الطفل ، ثم نادت الشرطي ، وهزّته من كتفه ليقوم ، وقالت أنهم أولاد حرام ، ولعنت جلودهم ، وفهمت وأنا آخذ منها السلّة لأحملها ، أنها تقصد الحكومة ، والمسؤولين في السكة الحديد ، ثم أننا جرينا بعدما نزلنا من

القطار ، حتى الرصيف الثاني ، فوجدنا أن الناس نزلوا مثلنا من القطار الأول ، وتسابقوا للركوب في القطار الآخر ، حتى أنني ، لما صعدنا إليه ، وجدت مقعداً فارغاً بصعوبة ، فقلت لها : اقعدي أنت بسرعة ، وأنا أبقى واقفة هنا . ثم أني أقفلت الشبّاك الخشبي لأسند ظهري إليه ، وبقيت واقفة ، أنظر للناس والشوارع والبيوت ، التي تتلاحق مناظرها من الشبابيك المفتوحة ، بالجانب الآخر من القطار ، ورحت أفكر في المجلة ، ومدير التحرير ، الذي قابلته ، ويوم الإجازة ، الذي حصلت عليه بصعوبة من عملي ، وانقضائه في المواصلات والبحث عن مكان المجلّة ، الذي كنت لا أعرفه ، ورحت أستعيد أيضاً المشاهد التي رأيتها منذ الصباح حتى الآن ، وصورة رأس مدير التحرير ، الصغيرة ، بالنسبة لجسمه الضخم ، وقلت لنفسي ، وأنا أتنهّد : والله بلد جهنّمية فعلاً .

كان الباعة والشحاذون قد بدأوا يتوافدون ، مُلقين بِلُفافات الحلوى الصغيرة ، وأنواع من اللبان الرديء على أفخاذ الجالسين ، معلنين عن بضاعتهم الرخيصة بأصوات وقحة وأناشيد سخيفة ، فحمدتُ الله على كوني واقفة ، رغم ضيقي الشديد من الشاب الجالس بجوار المرأة ، التي حَمَلْتُ عنها السلّة ، والذي كان يرفع رأسه ، بين الحين والحين ، عن المجلّة التي يطالعها ، وينظر متلصصاً إلى نصفي الأسفل ، الذي كان بمستوى ناظريه ، وكنت ، في كل مرة يفعل فيها ذلك ، أبدّل من وضع وقفتي ، وأتكيء على قدمٍ بدلاً من الأخرى ، ولما نظرت لوجهه ، كان متعرقاً قليلاً ، رغم أن الجوّ لم يكن حاراً ، وبدت بعض البثور متناثرة على جبهته ووجنتيه ، فشعرت بضيق أكثر من منظره ، واقترحت على نفسي النظر إليه في غضب حتى يكفّ ، لكنه ظل ينظر وينظر ، حتى اكتشف فجأة أن محطّته قد جاءت ، فهبّ واقفاً لينزل ، فسارعت المرأة باحتلال مكانه ، لأجلس مكانها ، بينما مرقت بنت صغيرة ، ووقفت مكاني ، بعد أن ظلّت ، لفترة واقفة تتأرجح ، وكانت المعاناة ، على وجهها واضحة ، فسحبتها المرأة من يدها ، وأفسحت لها مكاناً بيننا على المقعد ، ثم تصعبت ، وهي تربت على الصغيرة ، قائلة : والله الرحمة انقطعت من قلوب الناس . قلت لها · الناس كلها معذ‍ورة ، وأرواحها صارت في

مناخرها ، لأن كل واحد راجع من مشوار ، ومحتاج أن يرمي نفسه على كرسيّ ويرتاح . فتطلّع الناس نحوي قليلاً، وكان المحصّل قد جاء وطلب التذاكر ، وكنت أفكر ، وأنا أعطيه التذكرة ، في أني قد صرفت جنيهين تقريباً خلال المشوار ، لأني اضطررت لركوب تاكسي حتى أصل مبكّرة وأستطيع مقابلة مدير التحرير ، وكذلك دفعت أربعين قرشاً ثمناً لشاي وساندوتش في كافيتريا المجلة ، ورغم ذلك لم يأت الرجل إلا في العاشرة والنصف ، وظل مشغولاً بمكالمات تليفونية ، لفترة طويلة من الوقت ، وأخيراً رحب بي ، وهو يشعل سيجارة ، ويتأملني ، ثم قال أنه سمع باسمي من شخص نسي اسمه ، لكنه لم يقرأ لي شيئاً من قبل ، فقلت له إني فضلت أن أقدم له القصيدة بنفسي ، لأني خشيت ضياعها في البريد ، كما يحدث كثيراً ، أو أن تتوه بين الخطابات الكثيرة التي تصل المجلة ، وأخبرته أيضاً أني قررت نشرها ، لأن أناساً كثيرين قالوا لي إن مستواي معقول ، وممكن أن أكون شاعرة لها قيمتها ، ثم سألته ، وأنا أقدمها له ، إذا كان يظن أن أحداً يقرأ الشعر هذه الأيام .

قال المحصّل أنه لايجد معه باقي ربع جنيه الآن ، وأن من الأفضل إعطاءه فكة ، ولما لم يكن معي ماطلب ، أفهمته أنني سآخذ منه ماتبقى لي عندما يدور على بقيّة الركّاب ، ويفكّ ، وكنت أعرف أنه سوف يصهين على المتبقّي لديه ، من الفلوس ، وأنه سيأخذهم لنفسه ، وكنت أشعر بقرف ودوخة ، وبصعوبة الحياة في هذه الأيام ، وكانت الصورة قد بدأت تهتز أمامي ، وأصوات جلبة البائعين والركاب تخفت في مسمعي ، فأغمضت جفني ، بينما خدر لذيذ يجول في أوصالي ، وصوت هزّة القطار الرتيبة تختلط بمصمصة شفتي المرأة ، التي بجواري ، وتنهداتها . وكان شيء بداخلي يترنّم على ذلك الإيقاع المختلط قائلاً : لاشيء يستحق ... لاشيء يستحق .

تمنيت أن يستمر القطار في المسير إلى مالانهاية ، وأن نسري هذه اللحظات في مدى الزمان ، فلاشيء يستحق . لاشيء يستحق ، حتى أنني خففت قليلاً من قبضة يدي المضمومة على لاشيء ، وبدأت تظهر داخل عيني المغمضتين نافورة مياه بديعة جداً ، تطلق رشاشات قصيرة من مائها ، إلى أعلى ، مشكّلة

أقواساً متقاطعة عندما تعاود السقوط في البحيرة الرخامية المحيطة بالنافورة ، وحاولت أن أستعيد هذه الصورة عدة مرات ، حيث كانت هذه عادتي قبل الإستغراق في النوم ، حينما تتوارد الصور في مخيّلتي عادة ، فإذا كانت جميلة ، تعجبني ، استعدتها مراراً في محاولة لتثبيتها والتمكّن منها ، أما إذا جاءتني غريبة موحشة ، على هيئة وجوه وشخوص كئيبة ، فإني أفتح عينيّ ، سريعاً ، محاولة الفكاك منها بالنظر إلى شيء ، في متناول النظر ، لأتشبث بصورته عندما أغلق جفنيّ مرة أخرى ، غير أنّ النافورة كانت قد أخذت تتألق بألوان حمراء وخضراء وزرقاء ، شفافة ومبهجة ، فتساءلت ، كما اعتدت أن أفعل ، وأنا أحاصر الصورة بمخيلتي : أين رأيت هذه النافورة ياربّ من قبل ؟ .

خمّنتُ أن تكون نافورة ميدان التحرير ، أيام زمان ، واستعدت في ذهني صورة هذه النافورة المتألّقة ، التي كنت أراها حينما كانت أمي تأخذني وإخوتي الصغار للفسحة والتسرية ، في ليالي الصيف الحارّة ، فنجري ونلعب حولها ، وأمي تناولنا لقمات الخبز بالجبن لنتعشى ؛ لكنني تذكرت ، بسرعة ، أن نافورة ميدان التحرير كانت كبيرة ، تطلق الماء عالياً ، بحيث تُمكِنُ رؤيته من بعيد ، فسألت نفسي ، مرّة أخرى ، عن هذه النافورة ، التي أراها ، ثم مددت رأسي تحت رشاشات الماء ليغمرني ، والترنيمة مستمرة على مداها ، لاشيء يستحق .. لاشيء يستحق . ثم أني أفقت على صوت المحصّل وهو يقول أنه لم يجد معه إلا عشرة قروش ، ويبقى لي عنده خمسة قروش ، سيعطيها لي ، عندما يعود مرة أخرى ، وكنت أعرف أنه يكذب ، مثلما يفعل المحصّلون دوماً ، فَبَقِيَت الفلوس في يدي ، ولم أعدها للحقيبة مرة أخرى ، وقلت لنفسي : أنام مرة ثانية ، وأغمضت عينيّ فعلاً ، لكن الطفل الصغير كان قد أخذ في البكاء لسبب ما ، ففكرت في كلام مدير التحرير معي ، ورأيه في أن الناس تفضل الشعر العاطفي ، هذه الأيام ، لأنها ملّت الشعارات والهتافات والكذب ، وأن ذلك النوع من الشعر هو الذي يمكن أن يعيش ويستمر على مدى الزمان ، ثم سألني إن كنت أتذكر أية قصيدة من أيام حرب بورسعيد ، مثلما أتذكّر قصيدة بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ؛ فاكتفيت بالابتسام الخفيف ، كعادتي عندما أجد أن الكلام ليس له معنى ، فتهيمن داخلي قوّة خفيّة ، تلجمني ،

وتخرسني عن الكلام ، وتجعلني غير راغبة في قول شيء أو فعل أي شيء ، وكنت أعرف ، ساعتها ، أني أستطيع مجادلته ، والرد عليه ، لأني أحفظ أشعاراً حماسيّة كثيرة ، وأن بانت سعاد كانت مقرّرة علينا في المدرسة ، كذلك كنت أفكر فيما قاله عن قصيدتي ، التي كان عنوانها « النهر بحري والنجوم نهاري » من أنه يمكن أن ينشرها ، لأن مستواها الفني معقول ، لكنه لا يحبّذ موضوعها ، لأنه محدود ، بعض الشيء ، وهو لايحبّ الشعر الغامض أيضاً ، ولم أردّ كذلك ؛ وحاولت أن أتمثل ، الذي يقصده بكلمة « محدود » في عينيّ المغلقتين ، لكنني شعرت بشيء بضّ يخبط على فخذي ، ففتحت عينيّ لأجد البنت الصغيرة قد ذهبت من جواري ، والمرأة تُرقِدُ الطفل في حجرها ، ورجليه ، الصغيرتين ، العاريتين ، تستقرّان على فخذيّ ، فداعبتُ قدمه الصغيرة ، القلقة ، بأناملي ، وقلت لها : يمكن محتاج أن يرضع . فقالت لي : أنه شبعان ، لكنه متضايق ، لأنه مبلل وعاملها على نفسه . ثم راحت تلاعبه ، وهي تضحك قائلة : أسكت ياوسخ ، يامعفن .

قمت ، بسرعة ، من مكاني ، لأني لمحت إعلان الجوارب الرجالية ، وبجواره النخلة ذات الجذع الخالي من الفروع ، فعرفت أن المحطّة قربت ، وبينما أنا أزاحمُ لأصل باب النزول ، داس رجلي واحد من الواقفين ، فقلت له بغضب ، وأنا أتألم : حاسب ياأخي . وكان ذلك الرجل يدخّن ، وينفث الدخان في قفا الشخص الواقف أمامه ، فلم يردّ ، ولما ابتعدت عنه قال : « عاملة نفسها واحدة » ، ففكرت أن أعود إليه وأردّ على كلامه ، لكن القطار كان قد دخل المحطة ، وأوشك على التوقّف ، وكنت وقتها ، أفكر في كلام رئيس التحرير ، الذي يكتب الروايات ، ويظهر من حين لآخر في برامج التليفزيون ، والذي قال لي : إن الموهبة لاتكفي ، فالاتصالات والعلاقات ، والإصرار على النشر مهم جدّاً ، وأنت واحدة ، يعني ممكن تستفيدي جداً من هذا الوضع . كنت أشعر وقتها أن الحياة صعبة جداً ، وأني في حاجة للاستحمام بمجرد وصولي إلى البيت .



الأشياء الرمادية

كانت الأشياء تبدو باهتة ، بلا تألق في عينيها ، البنايات القديمة المتربة ، والوجوه السائرة المتعبة ، بنظراتها الكسولة المنكسرة ، التي تطالعها بين الحين والحين ، بينما رائحة عوادم السيّارات تعبق أنفاسها ، طوال الطريق ، وتزيد إحساسها بالغثيان والصداع ، اللذين ظلّا يلحان عليها إلحاحاً دؤوبا ، مثلما أخذ يفعل الجوع في أحشائها ، مما دفعها لأن تفكّر في العودة إلى البيت ، مع أنها لم تجد شيئاً مناسباً تشتريه ، رغم كلّ الساعات التي أمضتها ، في المشي والفرجة على المحلات ، منذ أن انتهت من عملها فيما بعد الظهيرة . زفرت وفكّرت أنها لو كان معها مزيد من الفلوس ، لخفف ذلك من صعوبة المشكلة ، لكنّها يجب أن تكون مدققةً في الاختيار ، مقلّبةً للأمر من كافة جوانبه ، فهي لا يمكن أن تغامر وتشتري شيئاً ، ربّما اكتشفت كونه غير ملائم بعد ذلك ، أو أنّه رديء الصنع ، فتندم ، وتتأسف ، لأنها بددت جنيهاتها فيما لا يفيد ، لمحت محّلاً آخر بينما هي سائرة ، توقفت أمامه ، بحركة لا شعورية ، وراحت تتطلّع إلى واجهته الزجاجية المُنَسَّقة ، بنظرات فاحصة ؛ كان ثمّة شيء معقول يمكن أن تشتريه ، فولجت إلى داخل المحل

لتجرّب مرّة أخرى ، فلربّما نجحت في ابتياع شيء مناسب ، هذه المرّة ، قبل العودة إلى البيت .

اقتربت من عامل عجوز متهمك في البيع لامرأتين محجّبتين ، تحاول إحداهما حشر قدمها في حذاء ذي كعب عالٍ لامع ، مؤكّدة أنه لا يمكن أن يكون بالمقاس الذي طلبته ، والرجل يجادلها ، بينما راحت الأخرى تقلّب في مجموعة من الأحذية ، الموضوعة على الأرض ، مقترحة شراء عدد منها . نظرت إلى المرأتين بضيق ، ونادت البائع :

ــ من فضلك .

لم يردّ عليها ، بينما جاءها آخر ، عارضاً خدماته عليها ، فأشارت إلى حذاء بسيط ، ذي لون أحمر قانٍ ، بعد أن أخبرته بمقاس قدمها ، ثم أردفت بصوت خفيض :

ــ لكن ، أسود لو سمحت .

هزّ البائع رأسه معلناً أنه لا أسود من هذا الطراز ، وقال لها أن ثمّة أبيض ، وأزرق وأحمر فقط ، ثم أشار عليها باختيار آخر ، فخرجت مرّة أخرى إلى الواجهة الزجاجيّة ، لتتأمل ما بها من جديد ؛ كانت كميّة من الأحذية ، زاهية الألوان ، تتوزّع بين الأحذية البيضاء ، ذات الكعوب متباينة الارتفاعات ؛ أسقِط في يدها ، وكانت تجتاحها رغبة عارمة في شراء حذاء جديد قبل العودة إلى البيت ؛ عادت للرجل مرّة أخرى ، وسألته أن يريها شيئاً بسيطاً ، بلا كعب فأومأ إليها بالجلوس لتستريح ، وتركها ليحضر لها ما تطلبه . كانت المحجّبتان قد ارتفعت إلى جوارهما كومة من الأحذية في صناديقها . ظلّت تراقبهم متمنّية عودة الرجل بشيء يناسبها لتشتريه ، لأنّ حذاءها اهترأ بما يكفي ، ولم تعد قادرة على مواصلة استخدامه في الذهاب إلى العمل . كانت منهكة ، وتشعر بتعب حقيقي ، وقرف من حرارة الجوّ والرطوبة ، التي تجعل العرق يتصبب من رأسها على رقبتها ، وكذا تحت إبطيها دونما توقف ، وربما بسبب انخفاض ضغطها أيضاً ، لأنها تشعر بجفاف في حلقها ، عاد الرجل أخيراً

بعدّة صناديق ، فتح أولها ليقدّم لها حذاء جميلاً قائلاً :

ـــ جرّبي

ـــ قلت لك لا أريد الأبيض .

قالت ذلك بضيق ونفاد صبر ، فراح البائع يقنعها بجمال الحذاء الأبيض وأناقته ، منبهاً أن الموسم صيف ، لذلك فإنه صعب جداً الحصول على حذاء أسود ، أو بأيّ لون داكن آخر في هذه الآونة ، كادت أن تصرخ لتسكته ، فالصداع كان قد بلغ مبلغه في رأسها ، علزفاً ، مع الجوع ، أنغام ألم مجنونة ، سيطرت على كلّ حواسّها ، لكنّها بدلاً من الصراخ ، أفهمته بنبرات يائسة خفيضة أنها تفضّل الأسود أو البنّي ، لأنها محتاجة لحذاء عملي ، يتحمّل أتربة وأوساخ الطريق ، الذي تسير فيه ، قبل أن تستقلّ القطار ، ذاهبة ، وعائدة إلى عملها بوسط المدينة ، كلّ يوم ، وأن الأبيض لون جميل بالفعل وهي تحبّه كثيراً ، لكنّه يحتاج إلى عناية ورهافة ، في الاستخدام ، يصعب تحقيقها ، وكانت تقصد أنها لا يمكن أن تستخدمه كثيراً ؛ فلما لم تُدْخِل قدمها في الحذاء لتجرّبه ، فتح الرجل صندوقاً آخر ، وأخرج منه حذاء بلون وردي فاتح ، تناثرت على مقدّمته خرزات ملونة صغيرة ، مكوّنة ما يشبه الفراشات الصغيرة ، فأوعزت له بيدها كي لا يخرجه ، لأنها مستحيل أن تلبس حذاءً كهذا لا يصلح إلا للحفلات والسهرات الليلية ، همّت أن تقوم من كرسيّها لتخرج ، لكنّه قال لها :

ـــ انتظري لحظة .

عادت إلى جلستها ، بينما حمل صناديقه ، وذهب من جديد ، إلى موضع البضاعة في المحل . وكانت تفكّر في أن الحذاء الوردي جميل بالفعل ، ومنظره يثير البهجة في النفس ، وقالت لروحها : لو تزوّجت ، فلسوف أشتري واحدا مثله ، أرتديه يوم حفل الزواج مع رداء وردي فاتح ، من الحرير الرقيق ، وأكلل شعري بتاج جميل من الماس الصناعي المتلألىء ، بينما أريح ذراعي على ذراع شابّ وسيم أحبّه ، تطلعت إلى وجهها في المرآة المقابلة لها في جلستها ،

ونظرت بسرعة إلى الوجهين المّوردين للمحجّبتين ، حيث زججّت حواجبهما بنعومة ، واكتحلت عيونهما ، فبدت جميلة ، لامعة ، فشعرت بضيق ، من شحوبها الدائم ، وأنفها الذي يلتهم معظم مساحة وجهها الصغير ، وزفرت بيأس ، لأنها تيقّنت ، من جديد ، أن الشبّان يصعب أن يلتفتوا لمثلها ، وأنها لا تمتلك ما يساعدها على أن تكون مطلوبة فى دنيا الزواج ، فهي موظّفة ، بسيطة ، لا تحلم أبعد من أن تكون مستورة ، بين الناس ، دوماً ، لا تجبرها الظروف ، فى يوم من الأيام ، أن تمدّ يدها لأي كائن كان ، وعندما وصلت إلى هذا الحدّ من التفكير حمدت الله ، وقالت لروحها أن الحذاء الورديّ لا يمكن أن يناسبها ، فهي لا تخرج بعد عودتها إلى البيت ، إلا في مشاوير صغيرة بالحي ، الذي تقطنه مع أمها ، ثم أن الشوارع القذرة المحطّمة ، المليئة بالمياه الوسخة ، والحفر والمطبّات ، التى تصطدم بها دوماً ، لا تتماشى مع ذلك النوع من الأحذية ، ولتلبسه امرأة أخرى ، من طراز مختلف ، تركب سيارة ، وتطأ قدماها عتبات رخامية لعمارات نظيفة ، تصعّبت ، وتمنّت أن يعود الرجل بسرعة ، ومعه حذاء مناسب بلون أسود ، أو بنّي ، لأنها تكاد يغمى عليها من التعب والجوع ؛ نظرت إلى المرآة المقابلة ، فوجدت الرجل يعود حاملاً صندوقاً وحيداً ، بينما المحجّبتان تغادران المحلّ ، محمّلتان بكمّية ضخمة من الصناديق ، متحيّرتان في كيفيّة حملها وهما تتضاحكان ، فسألت البائع ، الذي بدا متبرماً منها قليلاً عما ستفعلانه بكل هذه الأحذية ، فقال لها :

ــ كلّها هدايا .

تعجّبَتْ ، واستطرد قائلاً : لأنهما مسافرتان إلى الخليج ، وأنهما زبونتان للمحل ، تأخذان كلّ سنة ، عند عودتهما لعملهما هناك ، كمّية كبيرة من الأحذية ، كهدايا لأصدقائهما ومعارفهما ، لأن الجلد هناك غير متوفّر ، وثمنه مرتفع .

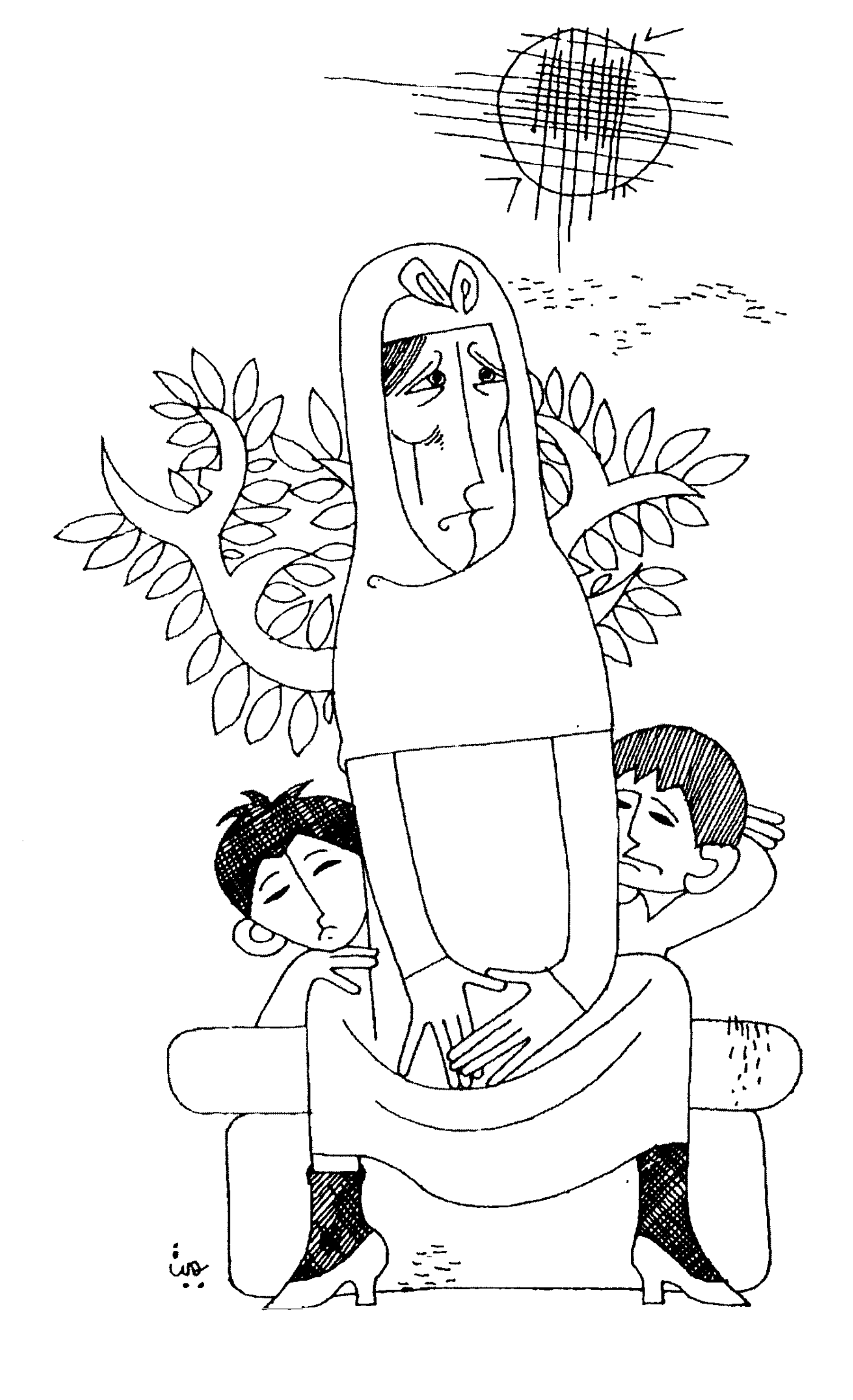
ابتسمَت مستغربة ، لأنها كانت تظنّ أنّ الهدايا يجب أن تكون شيئاً جميلاً ، رقيقاً ، معبراً ، ثم لماذا لا تأخذان لهم حقائب جلديّة صغيرة ، أو أي شيء آخر من المصنوعات الجلديّة الأخرى ؟! قالت باستنكار :

ـ جزَم ... غريبة فعلاً ؟!

لم يردّ الرجل ، وكان يفكّر في أنها زبونة مملّة ، لكنّ سلقيها جميلان ، وربما لن تشترى شيئاً ، حشر قدمها الأيسر في حذاء ذي ألوان رماديّة متدرّجة ، وقال لها أنه مناسب وعمليّ جداً ، بالإضافة إلى أنّه من النوع الذي يتحمّل لفترة طويلة ، كما أنّ الرماديّ يتماشى مع أشياء أخرى كثيرة ، وكرّر من جديد ، إنّه لون مناسب . جدّاً .

أدخلت قدمها في الفردة الأخرى للحذاء ، تمشّت قليلاً أمام المرآة ، كان حذاءً بسيطاً ذا مظهر جامد ، ثبّت زرّ أسود صغير ، في مقدمته ، بلا معنى ، نظرت مرة أخرى إلى قدميها داخل الحذاء ، كانتا متورّمتين بعض الشيء ، سألته عن السعر ، كانت تشعر أنه يضايقها قليلاً ، لكنّه في الحقيقة ، كان مناسباً جدا .







انتظار الشمس

— ١ —

« لا حول ولا قوة إلا بالله ، والله إنك آذيتني وسممّت بدني بهذا الكلام . هل لأني تكلمت معك عن حالي وهمي ، وفرّجت عن نفسي ، بعد أن قلت رجل في مقام والدك يابنت ، لا يضير الكلام معه ، تقول ماتقول ، وتطلب مني ما طلبت ، والله إمّا أنك تمزح ، أو أنك خرف مجنون ! » .

ذلك ما قالته المرأة أمّ الولدين للرجل الجالس إلى جوارها على المقعد الحجري بالحديقة العامة ، حيث جاءت ، في يوم من أيام هذا العصر والأوان ، لتشمّ الهواء في فسحة من الزمان ، حيث الشمس الساطعة ، والظلال الوارفة ، والجدول الجاري ، وراحت تسامر ولديها بحكايات عن الطير والحيوان ، وإذ بذاك الجالس بجانبها على المقعد الحجرى ، يشاركها الكلام ، على غير عادة أهل هذا الزمان إذا ما التقى بعضهم بعضاً فى الأماكن العامة . وكلام يجر كلاماً ، تغير الحديث وتطور ، وخرج من عالم الطير والحيوان ، إلى شؤون بني الإنسان ، بل ووصل إلى حدّ طلب فيه الرجل الزواج من أم الولدين ، فقالت

ما قالته ، ثم تصعّبت على روحها وحوقلت ، وتركت ما بين يديها من شغل الصوف ، وراحت تتطلع إليه . تأملته تأمل المرأة للرجل ، فوجدته عجوزاً واهناً في عمر من تأخذ منه الأيام ولا تعطي ، فتنهّدت وقالت لروحها وهي تلاحظه يرقب سرباً من النمل يسير ناحية الشجرة التي يجلسون تحتها : أتخرجين من نقرة ، فتقعين في حفرة ، والله لا يحتاج مثل هذا الشيخ إلا إلى ممرضة ، تأخذ بيده ، وتعطيه الدواء ، وتغطّيه قبل النوم عند المساء . والله لو تزوجته لصحّ قول المثل : لُمّ المتعوس على خائب الرجاء .

ثم أنها همّت أن تأخذ الولدين وتمضي مبتعدة عن المكان ، غير أن الرجل استوقفها قائلاً ــ وهو مايزال محدّقاً بالأرض ، لا يرفّ له جفن أو يهتزّ له رمش ــ : لا تكوني رعناء حمقاء ، قليلة حيلة وتدبير ، فما أعرضه عليك فرصة بحق ، ربما لن يوافيك الزمان بمثلها مرة أخرى ، هل تظنين أنني أحببتك حبّ النظرة الأولى ؟! أو أني عجوز متهافت على الدنيا ، أروم لذّاتها الفانية ؟! والله أبداً ، فما أردت إلا الوصول للآخرة مرتاح البال والضمير ، بعد أن أكون قد غيّرت ما رأيته منكراً بيدي ، والمسألة لا تحتاج لأخذ وعطاء ، وانتظار وتسويف ، فإذا كنت ترومين الشمس ، فالله منّ علي ببعض منها ، وأنا أعطيها لك ، مع نصيب من مالي وموجودي ، ولديكِ أولى به من أولادي ، وربما صاروا من ملح الأرض الذين سيكشف لهم الكريم نوره ، فيسيرون في الدنيا بالرحمة ، لا يبغون إلا وجه الحقّ ، ثم حثّها أن تعقد أمرها ، وطالبها أن تقر قرارها ، قبل أن يحمّ حمامه ، وينفذ سهم المنيّة فيه ، فتبكي بعد ذلك بالحسرة والندم ، لأن من في مثل عمره لا ينتظر إلا آخرته ونهاية مطافه . وما كان منه ، بعد ذلك ، إلا أن قام ، وحيّاها تحية الأخوان ، وأعلمها أنه سيمهلها إلى غد إن شاء الله ــ لتحزم أمرها وتقرّ قرارها ، ثم مشى مشية المتيقّن من أمره ، بعد أن وعدها اللقيا في المكان ذاته ، وعلى المقعد نفسه ، الذي تظلله الشجرة الوارفة ، ويقابله الجدول الجاري ، وقد ظلت المرأة تتابع ظله يبتعد شيئاً فشيئاً على الأرض ، بين مكذّبة ومصدّقة لما جرى لها ، ولكلامه معها ، وعندما اختفى خياله عند باب الجنينة ، أخذت ولديها ، ولمّت حاجاتها ، وسارت إلى بيتها .

منذ أن تركها الرجل ، وحتى صباح اليوم التالي ، ظلّت المرأة تفكر في ذلك الغريب الذي طلب الزواج منها ، وبقيت مشغولة بكلامه لها ، تقلبه على كل وجه ، ولم تكن تتذكر مبتدأ الحديث بينهما ، وكيف راحت تحكي له كل الذي حكته ، عن حالها وعيالها ، كل ما تذكرته وتذكره الآن هو أن الشمس ظهرت فجأة من خلال الغيوم بعد أن ظلت ضعيفة واهنة منذ مطلع الصباح ، وشملتهم بدفئها شيئاً فشيئاً ، وكانت هي عندئذ قد تركت إبر الصوف من يديها ، اللتين راحت تفركهما مستمرئة الدفء ، عندما قال الولد الصغير معلّقاً على صداح الطيور المتعالي ترحيباً بالشمس : الشمس جميلة جداً يا أمي ، أنظري إنها أجمل من السحاب . أنا أعرف أنها سبب حياة البطة والديك ، والسمكة والعصفورة ، ولو ماتت الشمس ، لمات الناس كلهم وغطى البرد كل شيء .

قبّلت الأم ضناها قبلة حانية ، وربتت على ظهره ، أما العجوز فقال كمن يحادث روحه : لولا الناس لما طلعت الشمس . ولم تكن أمّ الولدين قد تنبّهت لما قاله ، لكنها رغبت في التكلّم معه ، ربما بسبب رغبتها في الحديث ، إلى شخص ما ، خلال ذلك الصباح ، فقالت أنها لا تأتي إلى الجنينة إلا ليجلس ولداها في الشمس ويلعبان قليلاً ، لأن البيت بارد ورطب ، ولا تزوره الشمس أبداً ، سواء في الشتاء أو الصيف ، فهو يقع أسفل عمارة محاطة بعمارات كثيرة ، تحجب الشمس دوماً . ثم أن الكلام جرّ كلاماً ، بحيث لم تعد تدري بعد ذلك كيف أخذت تحكي له عن نفسها ، هل عندما سأل الولد الصغير عن أبيه ولماذا‌لايأت معهم ؟، أم عندما سألها : لماذا لا يستبدلون الشقة بأخرى تدخلها الشمس ؟، كل ما تتذكره أم الولدين أنها راحت تحكي له وتحكي دون توقف ، عن نفسها ، وولديها ، وأمها التي ماتت منذ سنة وتركتها وحيدة في الدنيا . وكانت تستغرب أنها حكت له أدق أسرار حياتها ، رغم عدم معرفتها به ! هل لأنه عجوز ؟! ربما كان في عمر أكبر من عمر أبيها الذي مات من سنوات بعيدة ، أو لأنها لم تتصور أنّ من الممكن أن يعرض عليها

الزواج ، وهو الفكرة التي لم ترد إلى ذهنها أبداً . والغريب أن الرجل لم يحكِ عن نفسه ، ولم يتكلم إلا القليل ، القليل جداً ، لكن كلامه ظل محفوراً في ذاكرتها ، خصوصاً مقاطعاته الصغيرة لها عندما كانت تسرد حكايتها ، فلما قالت أن زوجها ضربها ضرباً مؤلماً في إحدى المرات ، ثم تركها تبكي وتنوح ، وعمل لنفسه كوباً من الشاي ، ثم أخذ يتفرج على التليفزيون ، ليلة أن قالت لحماتها أن طبيخها ينقصه الملح ، لمّا دعتهما ، بمناسبة دعوتها لعريس ابنتها وأهله ، في العيد ، قال العجوز : « الصراحة سكّين يرشقه الناس في صدر صاحبها » .

أما قوله : « أهل المودّة كانوا ما كانت الشهوة نائمة » فكان بمناسبة تصريحها بأنها كرهت الزواج ، كراهية النار للماء ، لأنها كانت تظنّه غير الظنّ ، وتعتقده غير الاعتقاد ، وذلك لحظة أن اختلى بها زوجها ليلة الزفاف ، وهجم عليها هجمة الوحش الكاسر في الظلام ، وهي التي كانت تظنه سيفعل معها مثلما كانت تراهم يفعلونه في أفلام السينما ، فيخفق قلبها ، ويرتعش جسدها ، ثم حدّثته أنها كرهت القبلات ، كراهية لا مثيل لها ، منذ أن قبّلها زوجها القبلة الأولى والأخيرة ، التي تلقتها في حياتها من رجل ، وانها بعد ذلك دعكت أسنانها بالفرشاة والمعجون ، حتى تضيع أثر ما جرى لها .

ثم أنها أخبرته كيف كانت تفني يومها في خدمة زوجها والعيلين ، وتغسل وتكنس وتمسح منذ طلعة الشمس ــ بعد أن تركت شغلها وقعدت في البيت بناءً على رغبته ــ ثم يأتي هو بعد ذلك ويطلبها في الفراش آخر الليل ، فترفض ، فيغضب ويضربها ، فتنام في غمّ ونكد ، علماً بأنها تكون ساعتها كالجثة الهامدة من شدة التعب وهدّة الحيل ، فأعلمها العجوز أن « نفرة المصالح آفة التصالح » ، مثلما أعلمها أن « مغبة الفقر غيبة العقل » عندما تحسرت أمامه ، وأعلنت ندمها ، لأنها لم تكمل تعلمها ، بسبب أن الزوج كان قد تقدم لها ، ففرحت أمها لدنوّ سترها ، وهدوء سرها ، والخلاص من عبء تكلفة معاشها ، أما هي ، فطارت من سعادتها بالسلسلة الذهبية التي قدّمها العريس لها ، والفستان الأبيض في الزفّة ، حيث مشت تتطلع إليها العيون من كل

ناحية ، ثم كان هناك الأثاث ، والملابس الجديدة ، لكنها عرفت بعد ذلك أن فرحة الزواج قشرة تبرق وتزول سريعاً مع الأيام ، وأن مباهجه قليلة لاتدوم ، يعقبها هم ونكد وشقاء .

وكلما توغلت أم الولدين في سرد حكايتها أكثر وأكثر ، كان العجوز يرد عليها بعجيب الكلام وغريبه ، حتى عندما قالت له كيف طلّقها زوجها ، بعد ما ضربها علقة ساخنة فقذفته بمفتاح انكليزي أسال دمه ، وكان قد فاض فيض غضبها ، وفار فوراناً بعد غليان دمها ، فحلف يميناً أنها طالق بالثلاثة ، ولن تبيت ليلة بعد تلك الساعة في بيته ، فلمّت مالها عنده ، وأخذت الولدين ، وراحت لبيت أمها ، ومن ذلك الوقت وهي لا ترى خلقته إلا في طلعة كل شهر ، عندما يجيء إليها ، ويرمي لها فلوس نفقة العيال فعند ذلك الحد تنهّد العجوز ، ثم ترحّم على زوجته ، وقال أنها كانت كالبدر المنير ، والماء السلسبيل ، صوتها كالنغم ، وريقها كالعسل ، إذا تكلّمت همست ، وإذا سمعت سكتت ، لم تجادله يوماً في أمر قط ، ولم تطالبه بما لا يطيقه أو يستطيعه ، وقد أنجب منها ذكوراً ثلاثة ، دون أن يتطلع مرة إلى جسدها ، وكان قد تزوجها على مضض ، لأنه كان عازفاً عن الزواج ، غير راغب في جنس النساء ، حتى شكّ أبوه في رجولته ، فتزوّج إظهاراً للحقّ ، ولو تُرك وشأنه ، لكان له مع هذه الدنيا شأن آخر ، ولكان قد جدّ في سيره جدّ العارفين ، ومشى بهمة الواصلين ، لكن الواحد العليم ، يريد ما يريد ، ويقول للشيء كن فيكون .

ـ ٣ ـ

أما ما كان من أمر أم الولدين ، في صباح اليوم التالي ، فإنها عزمت عزمها على لقياه بالجنينة في الموضع المعهود ، والميعاد المضروب ، لكنها حتى قبيل ذهابها ، لم تكن قد رست على بر بشأن زواجها منه ، وإن كانت أميل إلى ذلك ، بسبب الشقّة الواسعة التي لا تغادرها الشمس ، حتى وقت مغادرة سماها عند كل غروب ، لكن أم الولدين ، كانت عازمة على ألا تقول ذلك

السبب للعجوز أبداً ، بل ستخبره أنها وافقت على الزيجة لأنها بحاجة لرجل تستند إليه في هذه الدنيا ، وتحتمي بظله ، وربما لن يقتنع هو بقولها ، مثلما لم تقتنع هي بما قاله لها من أسباب ، فصراع أولاده الثلاثة على الشقّة مسألة يستطيع حلّها في حياته دون زواج ، وكان العجوز قد حكى لها في اليوم الفائت حكايته مع أولاده ، فقال أنهم جميعاً يحبونه ، ولا يألون جهداً في خدمته ، وإظهار معزّتهم له ، لكنه اشتمّ منذ فترة رائحة صراعهم على شقته ، الذي ظهرت علاماته قبل أن يموت ، فالصغير يرغب فيها لإنشاء شركة للتجارة ، والكبير يرغب في بيعها والانتفاع بثمنها ، أما الأوسط فيريد الإقامة فيها ليؤجّر شقته مفروشة ، وكان قد قال لها أيضاً أن أبناءه قد بدأوا يكره بعضهم بعضاً ، وهم الذين أرضعهم الحنان والمودة ، منذ أن خلّفهم في هذه الشقّة ، وربّاهم حتى صاروا رجالاً لهم شأن في هذه الدنيا ، وهو يريد أن ينقذهم من هذه الشقّة بزواجه منها ، حتى لا يحدث لهم مثلما حدث للثيران الثلاثة ، فسألته عما حدث للثيران الثلاثة ، فقال لها ، زعموا أن ثلاثة ثيران كانوا يعيشون في مرعى خصيب ، حيث الماء والكلأ ، أحدهم أسود ، والآخر أبيض ، والثالث أحمر ، كانوا يأكلون ويمرحون لا يكدّر صفوهم شيء ، حتّى كان وقت أخذ المطر فيه ينقطع شيئاً فشيئاً ، والعشب يجفّ ، حتى كاد أن ينعدم ، فقرر الثيران الرحيل إلى أرض معشوشبة لا ينقطع عنها العشب النضير ، وعزموا على المغادرة في اليوم التالي ، وبات كل منهم يفكر أنه لن يرحل عن هذه البقعة ، لأرض أخرى ، فمازال بها بعض العشب ، يمكن أن يكفيه وحده ، لو رحل أخواه ، وربما هطل المطر فيما بعد ، واخضرت الأرض من جديد ، فيعيش هانئاً سعيداً ، يأكل من حشائشها دون منازع أو شريك ، فلما أصبح اليوم التالي ، صحوا والشرّ بادٍ على كل منهم ، فقال الثور الأسود لرفيقيه ، أرى أن الكلأ في هذه الأرض لا يكفي إلّا لواحد منا ، وأنا أرى أن تذهبا ، وتبحثا عن رقعة أخرى ، لأني أودّ البقاء هنا . فقال الثور الأحمر ، ولماذا لا أكون أنا الذي يبقى في هذا المكان . ومثله قال الثور الأبيض . ومالبث غضبهم أن أشتعل ، وثار غبار عراكهم ، حتى أوشكت الشمس على المغيب ، وبينما هم على هذه الحال وإذا بأسد فتي يمر على المكان ،

فأخذ يراقب سير المعركة ، ولما رأى أن الثور الأحمر قد خر صريعاً والثور الأبيض يوشك أو يكاد ، هجم وأجهز عليه ، بينما جرى الثور الأسود فى أجمة قريبة ، ونفسه تطير من شدة الفرح ، فقد خلاله الجو في الأرض ، وعزم أمره على أن يذهب إليها في اليوم التالي ، لينعم بخيرها وحده ، دون منازع ، ولما جاء اليوم التالي ، ذهب الثور إلى بقعة العشب ، فأكل هنيئاً ، وأخذ يسرح ويمرح هنا وهناك فرحاً بخلاصه من أخويه ، واستئثاره بالمكان ، لكن الأسد مالبث أن جاء ، وقد وجده صيداً يسيراً ، فهجم عليه وافترسه ، فخر الثور الأسود صريعاً .

ثم أن الرجل العجوز تنحنح وتنهّد ، وقال للمرأة أن أحداً من أولاده لا يستحق الشقّة ، لأن ما من أحد منهم بحاجة لها ، وأنه قد فكّر في تركها لصاحب العمارة ، لكن الرجل الذي هو بالأصل تاجر فاكهة ، لن يفكر في الأمر إلا كما فكر فيه ابناؤه الثلاثة ، فيحوّلها إلى مشروع من مشاريعه الكثيرة ، أو يبيعها ، أو يؤجرّها مفروشة ، كما قال لها أن البيوت جعلت في الأصل مأوى للناس ، ومستراً لهم ، وليست للربح والتجارة ، وقد قلت لأولادي : انظروا كيف نشأتم في هذا المكان ، حتى صرتم رجالاً ، ولو لم يكن هذا المكان مأوى وسكناً وستراً ونعمة لنا ، ربما ما تزوجت قط ، وما كنتم أنتم في هذه الدنيا ، ولو سكن الشقّة من بعدي إنسان ، فلربما فكّت كربته ، وقضت حاجته ، ولربما خلّف فيها من سبّح بحمد الله وشكر نعمائه ، ونفع الناس ونفعوه . ولكن يبدو أن خلاصهم لم يكن كخلاصي ، وطريقهم قد بعدت كثيراً عن طريقي ، وقد أيقنت ذلك لما رأيتهم ينظرون لبعضهم بعضاً النظر الرهيب ، ويسكتون السكوت الخطير ، ولا يردّون ، علمت أن الفرقة واقعة بينهم لا محالة ، بسبب الطمع والتكالب على الدنيا ، فترحّمت عليهم ، وطلبت من المتعالي أن يعمهم برحمته ومودته . فتعالي مع ولديكِ واسكنوا الشقة ، تنتفعون بها ، وتذكرونني بعدها الذكر الحسن ، فأتشفّع بكم عنده في ذريتي ، وليكن بيننا أيتها المرأة ما بين الأب وابنته ، أو بين الأخت وأخيها .

ذهبت المرأة في الموعد المضروب ، إلى المكان المعهود ، ولما حانت ساعة

اللقيا ، حيث كانت الشمس تبهج السماء بنورها ودفئها ، جلست أم الولدين على المقعد الحجري ، تنتظر قدوم العجوز ، متوقّعة وروده إليها بين لحظة وأختها ، وكانت تشعر آنذاك ، وهي تتأمل الكون ، أن روحها صافية صفاءً لا يعادله إلا صفاء مياه الجدول الجاري أمامها ، حيث تغردّ الطيور على الأشجار المحيطة به ، وكانت قد نوت ساعتها أن تتزوج الرجل ، لا لأجل الشفقة والولدين ، لكن لأجل روحها وروحه ، التي أدخلت على نفسها سكينة لم تعهدها من قبل قط .

وقد خاطبت المرأة روحها فقالت لها : وحتى ، يا بنت ، لو جرى بينك وبينه مالا يجري بين البنت وأبيها ، والأخت وأخيها ، فلن تمانعي أبداً ، فعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، فربما كان هذا العجوز خليلك وصديقك ، وأمك وأباك ، وعطية الدنيا لك ، بعد أن أمسكت وشحت وأشاحت بوجهها عنك في الزمان الماضي .

ويصعب التكهن بما حدث في صباح ذلك اليوم مع المرأة أمّ الولدين ، وما كان من أمرها مع عجوز المصادفة ، لكن في الأيام التالية لذلك اليوم ، ولمدة سنوات طويلة ، ظل رواد الحديقة يشاهدون امرأة ذاهلة العقل ، شاردة الفكر ، تنظر بين لحظة وأخرى إلى بوابة المكان ، تطرق إلى الأرض حيناً ، أو تتابع سرباً من النمل حيناً آخر ، ولما كانوا يسألونها ، كانت تتمعّن الوجوه ، بينا تعبر عينيها سحابة حزن ، وتجيب : « أنتظر الشمس » ، ثم تضيف في حسرة : لما نظرت إلى البعيد ، ظننته هو ، فوقفت وهممت بمد يدي لمصافحته ، لكنه لم يكن غير شحاذ مسكين مدّ يده إليّ طالباً حاجة لله .

بنت الفنصل

ظلّت القطة السوداء تتمسح بساقي عبد الودود ، وتموء مواءً مستعطفاً لايقاوم ، ولم يكن هو بحاجة إلى مزيد من الالحاح ، فحملها إلى صدره ، وشرع في فك ربطة عنقه الداكنة ، على الفور ، وسأل متنهداً :

ـــ طيّب .. هل عندك أكل وشاي ؟

ـــ عندي مصقعة ، معمولة من يومين ، موجودة في الثلاجة ، وأنادي البواب يشتري جبنا وحاجات بسرعة . ردّ ربيع بامتنان شديد ، وبدأ في إعداد مراسم احتفالية لضيفه ، منشفة نظيفة في الحمّام ، وخفّان قديمان أسفل السرير الذى نظّف ملاءته من الغبار بينطلونه المعلق خلف الباب ، ولم تمض دقائق ، إلا وكان عبد الودود متربعاً قبالته على السرير بملابس النوم ، حيث بانت شعرات بيضاء كثيفة على صدره ، وبقيا يرتشفان الشاي بتلذذ ، والقطّة راقدة فى حجر ربيع ، تهرّ برضا ، مادة رقبتها فى استجابة ممتنّة لمداعبات أصابعه التي ظلّت حركتها تؤرّق البراغيث الكامنة بها . أخذ يدخّن بشراهة ، ويحكي لصاحبه نوادر قطته الطريفة ، والتي كان آخرها أنها أخفت فردة جوربه أسفل حوض المطبخ منذ ثلاثة أيام . كان يلفّ ويدور مفتعلاً مرحاً عصبيا ، يحاول

من خلاله الولوج إلى كلام يريد قوله ، منذ أن جاء إليه عبد الودود ، ولما شعر أن صديقه بدأ يتثاءب قال بأسى :

ــ بكرة آخر يوم .

نظر إلى عيني الجالس قبالته بسرعة ، ثم حولهما إلى السقف ، ثبّت نظراته على خيوط العنكبوت ، التي تحاصر سلك المصباح ، عمّ أسى ، فكر خلاله ربيع في السؤال الذي ظلّ يشغل رأسه ، طوال الشهور الماضية ، ماذا ستفعل بعد ذلك ياولد ؟! ، كيف ستمضي بك الأيام والسنون ؟.. فكّر في مدام نادية ، وتأسّف لأنه لن يراها بعد نهاية ذلك اليوم مرة أخرى ، تنهّد ويده تمسح جسد القطة في حنان ، لكنها كانت تحرك برقي أذنيها باتجاه نداء خارجي عاجل يأتيها عبر النافذة المفتوحة : عاوو .. عاوو . قفزت من مكانها بنشاط ، ووقفت على الأفريز الخشبي بترقب .

قال عبد الودود :

ــ نازل أجيب علبة كليوباترا ، وأرجع .

على صوت إغلاق الباب ، فكر ربيع من جديد في السؤال : كيف سترقب الوقت من السابعة صباحاً ، وحتى الثالثة ؟ أين ستذهب ؟ إنها لمصيبة فعلاً إذا كنت لن تصحو في السابعة على صوت المنبه لتغتسل بسرعة ، وتعمل الشاي ، لتشربه مع أغاني الصباح ونشرة الأخبار ، ولن تلبس ملابسك لتكون في الثامنة إلا ربع ، تنتظر « الأتوبيس » ، وأنت ترمق النساء بحذر ، وتقرأ لافتة تسالي الحبايب ، المواجهة للمحطة ، والتي قرأتها آلاف المرات ، ستمرّ الأيام وتنسى لونها ، ورقم السجلّ التجاري ، لمقلة الحاج عمران ، الذي حفظته عن ظهر قلب ، ثم إنك لن تجلس خلف مكتبك في السجلات ، عند الثامنة والنصف ، تحتسي القهوة وتقرأ جريدة الصباح ، التي تفتحها أولاً على صفحة الأبراج ، لتعرف طالعك ، فتتفاءل ، أو تتطير وتكتئب ، ثم لتأكل مايجود علي الفرّاش بجلبه ، فتأخذ في تصفح أوراق العمل ، وتدوّن مايجب تدوينه ، وتحفظ مايجب حفظه ، أما مشهد الساعة الثانية ، فقل وداعاً يامشهد الساعة الثانية ، حساب البوفيه ، التسكع في الشارع حتى محطة الأتوبيس ،

الجري بضعة أمتار للّحاق بمقعد ، ثم الآنسة بهيّة التي تنزل قبلك بمحطتين و : « مع السلامة ياأستاذ ربيع » ، بينما خصلة الشعر النافرة ، تعود بها الأصابع الطويلة مرة أخرى خلف الأذن في حركة تطلق في روحك موجة من الراحة والانبساط ، رغم الأعوام العشرين التي تباعد بينكما في محطات الزمن .

شعر ببرد حقيقي يسيطر على أطرافه ، رغم الطقس الخريفي الدافئ ، وكانت المسألة التي تؤرقه ، هي مالذي سوف يفعله بروحه بعد الآن ؟ لم يكن يداخله أدنى شعور بالمرارة أو الندم على مافات ، بل على العكس من ذلك ، كان يشعر بارتياح غامر لأنه خرج بستين عاماً من عمره بسلام ، دونما مرض يلازمه ، أو مشكلة في عمله تضع أنفه في الأرض ، لقد نجح في أن يظل تقريره السنوي بتقدير جيّد ، صحيح أنه لم يحصل أبداً على ممتاز . ولكن جيد كانت كافية لأن يحصل على علاوته الدورية بانتظام ، فيتزايد مرتّبه بقدر معلوم ، ويترقّى درجة فدرجة ، حتى أصبح من كبار صغار الموظفين ، ولم يؤرّقه عدم الزواج أيضاً ، فلقد كفّ عن التفكير في ذلك حوالي عشرين سنة ، اكتفى خلالها ، مثلما كان من قبل ، بالحلول الذاتية ، ذاكراً دوماً فضل أبويه ، في هذا الجانب ، حيث ربّياه تربية أخلاقية صارمة ، أبعدته عن كل المدنّسات والاتصالات التي لايقرها الشرع ، وترفضها التقاليد ، ويطالها القانون ، وهو الآن عندما يفكر في ذلك ، يزداد امتنانه وشكره لأبويه ، « وإلا كانت مشكلة فعلاً ياولد .. لولا تلك الإرادة الحديدية ، والقانون الصارم الذي أرسياه داخلك ، لكنت ضعت حقاً ، ربما أصبحت نجس الذيل ، مأفوناً ، تجري في ذيل كل امرأة تراها في الطريق ، ثم إنك فكرت في الزواج مرّات ، وكنت في كل مرّة ترتّب أوراقك ، ولكن لم تكن هناك ورقة واحدة رابحة في يدك أبداً ، فعندما بلغ راتبك ستين جنيهاً ، وهو المبلغ الذي ظننت أنك ستتزوج فور وصوله إلى يدك ، كانت الدنيا تسحبه منك بطريقتها الخاصة ، وكأن هناك مؤامرة خفية ، تحول بينك وبين امرأة تكمل دينك ، وتكون لك على سنّة العرف والدين ، كان هناك دوماً الغلاء ، وارتفاع الأسعار ، اللذان يجعلان الستين ثلاثين ، والتسعين خمسين ، بالطبع كانت هنالك حلول على طريقة الكثيرين ، ولكن ، أبداً ياربيع ، محال أن تتزوج واحدة لاتعجبك شكلاً ، أو

أن ترضى بامرأة لمجرد كونها ترضى بك ، ربما لأنها تريد ظلاً تستظل به والسلام ، ثم إن مشكلة مدام نادية أنها مطلقة ، صحيح أنها تعجبك كثيراً ، وتتمتع برقة ونعومة وظرف تدخل قلبك ، وتدغدغ شعورك ، خصوصاً عندما تميل عليك وتسلّمك دفتر الوارد كل يوم ، بينما تسألك عن صحتك ، أو تبدي لك اهتمامها بقميص جديد ترتديه ، لكنك تعاف الشرب من أناء مسّته شفاه غيرك ، فما بالك بجسد بشري كامل ؟! لا والله مستحيل ، مهما كان الأمر ؛ وأنت لاتقبل أن يطالعك كل صباح ومساء وجه أعجف ممصوص كوجه فوزيّة بنت عمتك ، وجه ، نصفه أنف رهيب ، يجبرك على النظر إليه دوماً ، وتَذَكّرِ قدرة الله في خلقه ، وحتى لو امتلكَت فوزية كنوز سليمان ومال قارون ، فوق ماعندها من تعب وملل ، فأنت لايمكن أن تحيا مع أنفها تحت سقف واحدا أبداً ، وليبق وضعك كما هو عليه ، أفضل ألف مرة من الارتباط بمثل هذه النماذج ، لأن كل فولة ولها كيّالها ، وأنت لاتستطيع كيل مثل هذه الأصناف ، مهما بلغ أمر الزواج مبلغه معك » .

والحقيقة بالنسبة لربيع أنه لم يضع عمره هباءً ، كما يتصور البعض ، ولم ينفق دخله المحدود فيما لايفيد ، فبعد اقتطاع مصاريف المواصلات ، وأجرة شقّته الأرضية ، كانَ ينفق معظم ماتبقّى من راتبه على امتاع نفسه بنعمة الطعام ؛ ماعدا ذلك ، فهو لايصرف إلا فيما ندر على وسائل الإمتاع والتسلية الأخرى ، ويكتفي بشراء جريدة يوميّة عند الصباح ، ويسلّي نفسه بقرطاس من اللبّ أو الفول السوداني ، عندما يخرج ليتمشّى قليلاً عند المساء ، أما السينما فنادراً ماكان يدخلها ، وقد انقطع عنها تقريباً بعدما ساءت أحوال الجمهور ، وأصبح يطلق الألفاظ البذيئة عند المشاهد الغراميّة أو المثيرة ، أما المسرح ، فقد وطأته قدماه مرة واحدة ، عندما دعاه زميل له ليشاهدا سوياً مسرحية هزلية يشارك فيها شقيقه ، وفيما عدا السجائر التي كان يدخنها بحساب ، لم يتعاط أي نوع من المكيّفات . ورغم أن ربيع كان رقيقاً ، مرهف الأحاسيس ، لكنّه لم تكن لديه هواية محدّدة ، ولا مزاج خاص في شيء من الأشياء أو أمر من الأمور ، فقط ، ظل يحبّ الطبيعة جداً ، ويتمنى لو كان يستطيع العيش في كوخ على طرف غابة ، أو قرب حافة نهر ، بعيداً عن الناس

والضجيج ، وزحام المدينة ، وفى يوم من الأيام ، كان يعبر بالقرب من محل بيع الطيور وأسماك الزينة ، فوقف يتأمل العصافير في أقفاصها بألوانها الجميلة الزاهية ، وتملكته رغبة في اقتناء عصفورين جميلين ، وفي حالة حماس ، نادراً ماأصابته ، أقدم على شراء العصفورين بقفصهما ، وعاد إلى بيته يحملهما وهو سعيد ، مضطرب خشية أن يكون قد تهور وأقدم على خطوة لم يدرسها كما يجب ، لكن نفسه هدأت بمرور الوقت ، وأصبح بداخله شعور بالرضا كلما صدح العصفوران ، وأحس لأول مرة بأنه ليس وحيداً في هذا العالم ، وأن هناك من يشاركه الحياة في بيته الصغير ، ولم تمض شهور إلا وربيع قد ملأ شقته بعدد كبير من الطيور الملونة الصغيرة ، زادت عن العشرين ، كان يهرع إليها بعد عودته من عمله ، فيعدّ لها طعامها وشرابها ، وينظّف أقفاصها ، ويمضي ساعات طويلة في تأملها ومداعبتها ، وفي ليالي الصيف الحارة ، كان يفتح نوافذ البيت كله ، ويدير مؤشّر المذياع على موسيقى رقيقة ناعمة ، تتمثل خرير المياه ، أو هدير البحر ، سرعان ماتتوالف معها الزقزقات ، والشقشقات ، فينعش ربيع جسده بحمّام بارد ، ويتمدّد على سريره ، مغمضاً عينيه ، نافثاً دخان سيجارته ، سابحاً في تيّار أحلامه ، الذي يجرفه بعيداً إلى خميلة ورد ، من كل لون وصنف ، يجلس فيها ، ورأسه على صدر حسناء هيفاء فارعة متوردة ، كزهرة بنت القنصل ، التي طالما أحبّها عندما كان تلميذاً في المدرسة الابتدائية ، وظل معجباً بارتفاع سيقانها المتفرّعة ، كشجرة صغيرة نادرة ذات أوراق علوية عريضة حمراء ، سأل بستاني المدرسة مرّة ، لماذا يسمونها بنت القنصل ، ضحك الرجل وقال : « لو كنت رأيت بنت أي قنصل أجنبي لعرفت السبب » . وفهم ربيع وقتها أن بنت القنصل لابد أن تكون أجمل فتاة في الدنيا ، وهاهي تظل دوماً في أحلامه ، يختلط همسها بتغريد العصافير ، وتهبّ أنفاسها في روحه كعبير الورود ، فيشعر أنه قد وصل برّ الفرج ، وعبّ من ينابيع السعادة ، فلا ينتهي من جولة أحلامه ، ورحلة آماله إلا عندما يشعر بلسع اللفافة ، التي قاربت الانتهاء ، لجلد أصابعه ، فيهبّ لنفض الرماد ، وإخماد الجذوة الصغيرة المتشبثة بالحياة ، ثم أنه يسعل بضيق ، ويتوجه إلى النافذة ، ويتطلع في الفضاء المواجه لشباكه ، حيث الخرابة الممتدة

إلى نهاية الطريق .

لقد فوجيء ذات يوم بأن سكان العمارة ، وجيرانه ، ينادونه بالعصفورجي ، ودهش لذلك . أما هم فكانوا يستغربون اقتناءه لكل هذه العصافير دون أن يتاجر بها ، وكان أطفالهم كثيراً مايتعمدون إسقاط ألعابهم الصغيرة في شرفته ، ويدقّون بابه مطالبين باستعادتها ، حتى تسنح لهم فرصة الدخول إلى شقّته ، ورؤية عصافيره ، وتأمّل ألوانها البهيجة ، وهم يتباطأون في التقاط ما أسقطوه ، ثم وهم يمشون بخطى متثاقلة باتجاه الباب قائلين : « شكراً ياعم عصفورجي » . أو « افتح الباب والنبي ، نفسي أحسس عليهم » ، وربما طاوعهم ربيع أحياناً ، أو سمح لهم بالدخول ، إذا ماالتقاهم في فناء العمارة ، لرؤية عصافيره لكن في لحظة قدر رهيبة ، فقد « العصفورجي » طيوره الصغيرة ، فلقد رشّ الشقة ، ذات صباح صيفي حار ، بمبيد قوي للصراصير ، وأحكم إغلاقها ، ولما عاد عند الظهر ، لم يسمع صفيراً ينبعث من الأقفاص ، وعندم أفاق من عنف الصدمة ، وبينما كان يلمّ كومة اللحم ذي الريش الملون ليلقيه ، بيد مرتعشة ، في الخرابة ، بكى بدموع حقيقية ، كالتي سالت من عينيه يوم وفاة أبيه .

حتى كلبه صادق ، لم يستطع محو الفجيعة من قلبه ، رغم مرور الأيام والسنين على كارثة العصافير ، وكان ربيع قد وجد « صادق » ذات يوم بينما كان يأكل من عربة تبيع الكباب بجانب الطريق ، فرمى إليه بقطعة من الكفتة ، التهمها الكلب فوراً ، ووقف يتلمظ ، وسرعان ما أعطاه ربيع ثانية وثالثة ، حتى أن الكلب لم يجد بدأ من إيصال ربيع بنفسه ، بعد ذلك ، إلى البيت ، لأن ذلك أقل ما يمكن لكلب مثله أن يفعله ، تعبيراً عن امتنانه للرجل ، وسعادته الشديدة به . فقرر ربيع إزاء ذلك الحنوّ ، وتلك العاطفة الرقيقة ، إدخال الكلب ليبيت عنده ، لأن الجوّ كان بارداً جداً ليلتها ، ونظراً لسلوكه المستقيم بعد ذلك ، وشكله المقبول ، وتجاوبه الدائم ، فقد أصبح شريك حياة ربيع الذي منحه اسم « صادق » .

لكن النوائب كانت ماتزال في ترصّد لربيع ، حيث وجد صادق مسموماً في

خربة قريبة من بيته ، وهكذا صدق حديث قلبه له ، بأن سعادته مع كلبه لن تدوم ، بعد أن هدده صاحب العمارة بقتل الكلب ، إذا لم يطرده ، لأنه يزعج السكّان بنباحه ، ويخيف الأطفال ، وكان ربيع حريصاً على ألا يترك صادق يخرج وحيداً ، لكنهم نجحوا في استدراجه وسمّه . من يومها عرف ربيع سبب تلك الكراهية الكامنة التي يكنّها الناس للكلاب ، ربما لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا مثلهم ، أبداً ، قادرين على ذلك الحبّ ، ومتمتعين بتلك الدرجة العميقة من الصدق والوفاء . قبلها ، كان الأطفال يسألونه بدهشة : « لماذا لاتسميه ركس ، أو فلّة ، مثلا ياعم عصفورجي ؟ » فتبدو صعوبة شرح المسألة لهم ، مشابهة لصعوبة فهم مسألة عشقه لمدام نادية ، زميلته المطلّقة ، التي لايستطيع التفكير في الزواج منها ، إنه باختصار لايستطيع شرح العاطفة النبيلة التي يكنّها له صادق ، النظرات الطويلة الممتنة ، العواء اللين الودود ، ثم ذلك الامتثال غير المشروط لكل الأوامر والتعليمات ، لكن الآن ، ياإلهي ستبقى وحيداً كشجرة مورقة في عز الشتاء ياربيع ، لاأحد ، ما عدا هذه القطة . هي أليفة حقاً ، لكن المسألة أنها لاتبادلك العواطف ، لاتستجيب لنداءات الودّ ، فثمة شؤون لها وهي لاتسأل عنك إلا عندما تحتاجك .

كاد أن يبكي وهو يتخيّل كيف ستكون الإحدى عشر ساعة ، التي سوف تنتظره اعتباراً من بعد غد ، وماذا سيفعل فيها؟ ، إنه لايذهب إلى المقهى ، ولايصاحب أحداً من الجيران ، ولاصديق في حياته غير عبد الودود ، ولاأهل له ، فأمه وأبوه ماتا منذ زمن ، وأخته الوحيدة تعيش في مدينة أخرى مع زوجها ، : « وستبقى ياربيع في هذه الشقّة الرطبة مع نفسك التي أبقتك ، كل هذه السنين ، بعيداً عن مباهج الحياة ، لم تلامس يداك ثدي امرأة منذ أن فطمتك أمك ، ولم ينقشع عن عينيك ضباب العالم السرّي للرجال ، إلا بعد أن اشتريت التلفزيون ، ورحت تتفرج على الغرائب والعجائب في الأفلام والمسلسلات» .

فرك يديه في أسى ، تأملهما ، قطعتان من اللحم اللين الناعم ، دهش لأنه لم يلحظ ذلك من قبل ، ظل ينظر اليهما قليلا ، ولما لم يدر ماذا يفعل بهما ، تركهما تتدليان إلى جانبيه ، عادت القطة ، ثبّتت عينيها فيه قليلاً ، بدت له نظراتها ساخرة ، فأشاح بوجهه عنها ، عاد عبد الودود بالسجائر ، بينما بدأت

القطة في لعق فرائها ، أشعلا لفافتي تبغ ، توازى عمودان من الدخان الرمادي الباهت ، باتجاه السقف ، بدا عبد الودود واجماً مهموماً أيضاً ، ارتعشت اللفافة أكثر من مرة ، بين أصابعه ، وهو يرفعها إلى شفتيه ، قفزت القطة بدلال إلى حجر ربيع ، وبينما كانت نسمة رطبية تهل من ناحية النافذة ، قال ربيع لزميله بكآبة المضيف :

ــ خلّ القطّة تنام في حضنك الليلة ، وخلاص .

لعب الورق

كانت ليلة غير عادية في حياة سوسو وميمي وفيفي ، فرغم أن لعبة الورق ظلت موضوعة على الطاولة ، تنتظر إلى جانب صينية الشاي ، المعدّ منذ قليل ، إلا أن الثلاثة كن مشغولات جداً ، لدرجة أن ذلك الاكتشاف الهندي اللذيذ انتظر ، بما يكفي لأن تفتر سخونته قبل أن تنتبه إليه سوسو ، التي شهقت فجأة عندما رفعت رأسها ، واصطدمت عيناها بطرف الإبريق اللامع فقالت :

ـــ يا خبر أبيض .. نسينا نشرب الشاي ؟!.

لكن فيفي ، التي كانت تتأهب لتلاوة ما كتبته منذ لحظات ، أسكتتها بنظرة احتجاج ، وافقت عليها ميمي ، بتأفف من طال انتظاره للسماع ، فاعتذرت سوسو عن المقاطعة وهمست :

ـــ طيب .. قولي يا فيفي .. قولي بالراحة وحياتك .

وبدأت فيفي تقرأ ما كتبته :

عزيزنا محرر القلوب التعيسة

نرسل إليك هذه الصرخة ، الصادرة من القلب ، لا .. بل من القلوب ،

قلوبنا نحن سوسو ،ميمي وفيفي ، ونرجو أن يتسع صدرك الرحب ياسيدي ،فتقرأنا حتى النهاية ، وتشير علينا مشورة صادقة ، تريح أفئدتنا الحزينة ، وأرواحنا الحائرة ، فنهتدي إلى حلّ غاب عنا ، أو طريق لم نكن نعرف كيف نسلكه ، فنحن ياسيدي ثلاث فتيات ، مات أبونا منذ زمن بعيد ، وتولت أمنّا تربيتنا ، حتى صرنا شابات ناضجات ، ولكن أي نضج ، وأي شباب ياسيدي ؟!

بصراحة ، وعلى بلاطة ، نحن لا نتمتع بأي قدر من الوسامة أو الجمال ، فهذا رأي الناس بنا ، ورأي المرايا ، التي نطالعها كلّ صباح ، وفي كلّ وقت ومكان ، وهذه الحقيقة نعرفها جيداً ، ولا يمكن أن نغالط أنفسنا فيها أبداً .

ورغم نقاء قلوبنا ، وشفافية أرواحنا ، إلا أننا نتمنى أن يستبدل الله ذلك كله بنقاء بشراتنا أو صفاء عيوننا ، وأن تحن علينا الطبيعة بقليل مما عندها ، فتمنحنا بعض مانراه موزعاً على الناس ، لكنها بخلت ، وضنّت علينا ، حتى تمنينا أن نكون قاسيات شريرات ، غليظات الأفئدة ، وألا نكون دميمات قبيحات ، كلما التقينا رجلًا ، حتى ولو كان عابراً في الطريق ، أشاح بوجهه عنا بمجرد أن تقع عيناه علينا .

كنا نتمنى أن نكون صاحبات عاهات ، عمياوات ، خرساوات ، عرجاوات ، شريطة أن نُمنَحَ لمسة من الجمال أو بعضاً من الفتنة ، لكن ياسيدي .. نحن لا نملك إلا التمني .. لا شيء إلا الأماني ، فميمي التي هي أصغرنا جميعاً أيها السيد الكريم ...

وهنا قاطعتها ميمي قائلة :

ــ خلّيني أتكلم أنا عن نفسي والنبي .

ياسيدي ، أنا ميمي آخر العنقود كما يقال ، لكن ليس بي أي سكرّ معقود ، أو غير معقود ، يمكن أن يلحظه إنسان ، سواء في رسمي أو كسمي ، فماذا أقول لك عن شعري الخشن الصلب ، الذي يجعل رأسي أشبه بقنفذ صغير ملتصق بأكتافي ، أأحدثك عن ساقي المقوّستين الشبيهتين بكسّارة اللوز

والبندق ، أم عن بروز أضلاع صدري التي يستطيع أي طفل صغير أن يتعلم عليها العدّ والحساب . صحيح أن فيفي وسوسو أفضل مني حالاً ، لكنه ذلك الحال الذي لا يسمح لأن ينظر في وجهيهما إنسان ، ثم أن ..

جاءت لولو ثم نظرت ، وبدا لها أن طقس الليالي المعتاد ، قد تأخر بعض الشيء ، ربما بسبب تصاعد نشاط الصراصير المساني في المطبخ . وقفت حائرة توجه بوقي أذنيها هنا وهناك ، وأخيراً نطّت ، وتكوّرت على طرف المائدة ، حيث انكبّت الأخوات الثلاث على الورق للكتابة ، فتحسّستها ميمي بحنان ، وقبّلتها فيما بين أذنيها ، فأخذت القطّة تهرّ بسعادة ، وقالت فيفي التي بدت غير صبورة :

ــ لا ياميمي ... علينا أن ندخل في الموضوع مباشرة ، ونحكي المشكلة دون تطويل . من فضلك اتركيني أكمل أنا .

ثم أخذت القلم وكتبت :

عزيزي المحرر ..

لن نطيل الكلام ، فالموضوع باختصار ، أن صغرانا ميمي ، بلغت الثلاثين منذ شهرين ، وسوسو على مشارف الأربعين ، أما أنا فقد تجاوزت السادسة والثلاثين ، ونحن جميعاً ، ووفقاً لما تقدم لم نتزوج بعد .. ثلاث أخوات شابات ، لم تتزوج أية واحدة منا .

قد تقول : وما المشكلة في ذلك ؟ هناك مئات ، بل آلاف من النساء بلا أزواج . ولكن ياسيدي نحن محرومات من الرجال فعلاً ، ولا نعرف شيئاً عنهم ، فيم يفكرون ؟ كيف يشعرون ؟ هل يحبون ؟ هل يكرهون ؟ إنهم بصراحة ، كائنات غريبة ، غامضة ، بالنسبة لنا ، فنحن لم نتعامل مع أي رجل عن قرب ، حيث توفي والدنا ونحن صغيرات جداً ، وليس لنا إخوة أو أقارب ، فنحن مقطوعات من شجرة ، ولسوف نسوق لك حكاية بسيطة تعبر عن ذلك . عندما توفيت أمنا كان لها ابن عم مازال يعيش في بلدتها البعيدة ، فلما وصله الخبر ، جاء مع زوجته لتعزيتنا ، وقد أصيبت ميمي بالذهول ،

عندما رأت عينيه تدمعان ، وهو يتحدث عن أمنا ، التي كانت رفيقة طفولته وصباه ، وظلت تحدق فيه كما لو كان أعجوبة من عجايب الزمان ، فلقد كانت هذه ، ياسيدي ، هي المرة الأولى التي نرى فيها رجلاً عن قرب تدمع عيناه ، ويختنق صوته بالحزن .

في الحقيقة ، نحن نريد أن نتزوج ، نتزوج بأية طريقة ، ومن أي رجل كان ، نحن نريد أن تكون لنا بيوت ، وأطفال كبقية نساء الدنيا ، اتتصور ماذا تقول ميمي ؟! ، تقول : أنا مستعدة أن أدفع عمري ثمناً لطفل يناديني ياأمي ، أو حتى ياخالتي ، مستعدة فعلاً لأن أفعل أي شيء في سبيل أن تتزوج واحدة منا وتنجب أطفالاً .

سيدي ...

لا تقل حاولن .. تشاطرن ، فتشن عن الرجال ، فالرجال لا يتزوجون إلا إذا تزوجتهن النساء ، فنحن نعرف كل هذه الكلمات ، وقرأنا كثيراً من الروايات والقصص ، ونعرف أن هناك شيئاً يسمى سلاح الغواية ، وفناً اسمه رمي الشباك ، لقد حاولنا ياسيدي ، حاولنا مراراً ، فمنذ أن دخلنا ديوان الشباب ، ونحن نتأنق ، نلبس الأردية الضيقة ، والأحذية ذات الكعوب ، نتجمل بالأحمر والأخضر ، وكافة الألوان الأخرى التي يمكن أن تعطي للوجه نضارة ، وللشفاه جاذبية وفتنة ، وكنا ياسيدي نقتّر على أنفسنا ، ونحرمها من الطعام أحياناً ، حتى نوفّر مالاً نشتري به عقداً جميلاً ، أو سواراً أنيقاً ، يساهم في بعث فتنة كامنة فينا ، لكن هيهات .. هيهات ، أن يخلق الحلق آذاناً ، أو يصنع حزام خصراً ، ولأنني وميمي مدرستان ، فلقد بذلنا المستحيل لنتقرب من الرجال ، فكنا نوطد علاقاتنا بزميلاتنا اللواتي لهنّ إخوة في مرحلة الزواج ، لكن المسألة لم تسفر عن أي رجل ، ولارجل على الإطلاق ! ، أخيراً وفي ظل الموجة الأخيرة السارية ، تحجّبنا مع اللواتي تحجّبن ، وقلنا مع القائلين إن الرجال يفضلون المحجّبات الآن ، لكن ، أبداً ياسيدي ، لم يقترب منا رجل ، أي رجل .

هتفت سوسو:

– والنبي احكي له حكاية جارنا الأستاذ حسن .

كان ياسيدي لنا جار طيب اسمه الأستاذ حسن ، وزوجته اسمها كريمة ، وقد أصيبت ــ الله يرحمها ــ بمرض خبيث ، لم يمهلها ، فودّعت الدنيا تاركة للاستاذ حسن خمسة أطفال ، فكنا نعاونه في أمور البيت والمعيشة ، ونترك أولاده لسوسو لأنها لاتعمل ، فيذهب إلى عمله ، ويعود ليجد بيته نظيفاً مرتباً ، وأولاده في الحفظ والصون ، وكنا نقول لأنفسنا ، لابد أن يحطّ الأستاذ حسن في عينه حصوة ملح ، ويتزوج واحدة منا ، خصوصاً أنه كان يعاملنا بلطف ، ويعامل سوسو برقّة واضحة ، لكن الأستاذ حسن فاجأنا بأن طلب ميمي لمقابلتها في موضوع خاص ، فقلنا أنه حطّ عينه على ميمي ، لكنّه ، وياللعجب ، عندما اختلى بها في صالة منزله ، طلب منها سلفة ، خمسة وعشرين جنيهاً ، أتصدق هذا ؟ ! .

لاتقل لنا أن الرجال ليسوا كل شيء في الدنيا ، ابحثن عن أهداف أخرى ، اشغلن فراغكن بهواية ما ، ادرسن مثلاً أو اشتركن في نادٍ .

استطردت فيفي التي كانت تكتب :

في الواقع ، لقد حاولنا ذلك تحديداً ، فأنا كنت أهوى الموسيقى ، ومازلت طبعاً ، ولقد حاولت تعلم الموسيقى على أسس وأصول كما يجب أن يكون التعلّم ، لكن كم كان هذا مكلفاً وصعباً ، أن تدفع ربع راتبك لتتعلم الموسيقى ، وأن تركب المواصلات لفترة أخرى من الوقت حتى تتقن مي ، فا ، صول ، لا ، سي . تصور ، ربع راتبك .. تكمل به حتى آخر الشهر أم تتعلم الموسيقى ، وتصور أنك تمضي كل يوم ساعتين في جحيم المواصلات وزحمة الشوارع ، هل تغامر بساعتين أخريين لأجل النغم والألحان ؟ .

أحياناً نقول ونحن نتألم : آه ، لو كنا غنيّات ميسورات ، لهانت مشكلتنا كثيراً ، فالمال ياسيدي يحلّ الكثير من أمور الحياة ، لكن الدنيا بخلت علينا من كل النواحي ، فلامال ولاجمال ولا أهل ؛ وأحياناً نتساءل ياسيدي : لماذا تمضي حياتنا هكذا ، في ألم وحسرة ، دونما معنى . نحن نريد أن ننطلق ، نجري ، نرقص ، نسافر ونرى الدنيا ، لقد فكرنا كثيراً في أن نقوم بعمل نافع مفيد

للناس ، اشتركت سوسو مثلاً في جمعية خيرية من أجل الأطفال الفقراء ، لكنها شافت من خلالها العجب ، عالم عجيب غريب ، تديره نساء من العالم الآخر ، حيث الغنى والجاه واستعراض القوة والنفوذ ، ولم تطق صبراً ، فانسحبت بهدوء ، وعادت إلى ليالينا ، التي يبدو أن لانهاية لها ، ليالي لعب الورق ، وفتح الفأل فيه .

لاتقل ياسيدي : لماذا كل هذا الشوق إلى الرجال ؟ هل هو الجنس ؟ الحب ؟ نعم ياسيدي ، نحن نريد حباً ، ولنا مشاعر وحاجات كبقية البشر ، رغم أننا والحمد لله مختنات طاهرات ، رغبتنا في الرجال عاديّة من هذه الزاوية ، لكن قل لنا بالله عليك ، هل نستطيع الذهاب بمفردنا إلى السينما الآن ؟ وخصوصاً في المساء ؟ هل يمكن أن تذهب واحدة منا وتنزل البحر بمفردها لو أرادت ؟ نحن محاصرات ياسيدي وأنت تعلم ذلك بالتأكيد ، محاصرات في كل لحظة من لحظات حياتنا ، وعرضة لمتاعب كثيرة تكاد أن تحطمّنا ، وتفترسنا ، والسبب بسيط جداً ، وهو أننا بلا رجال .. لاأب ، ولاأخ ، ولازوج ، ولا إبن .

سيدي الكريم ..

إننا نملك حباً وحناناً ، نقدم منه الكثير لقطتنا العزيزة لولو ، وندللها بما يكفي لأن تبدو دوماً راضية ، موفورة الصحّة ، لكن ، نحن في الحقيقة ، نريد رجالاً نحبهّم ، جلداً بشرياً نتحسسه ونتلمسه بدلاً من فراء لولو الأملس .

كانت فيفي التي اعتادت كتابة خواطرها وتأملاتها في دفتر صغير لديها ، راغبة في الاستمرار بالكتابة إلى ما شاء الله ، ويبدو أنها نسيت أنهن سيرسلن الخطاب كما اتفقن إلى بريد القلوب التعيسة بمجلة النور الأسبوعية ، وتمادت في الكتابة ، غير أن ميمي نبهتها إلى ضرورة إنهاء الخطاب ، فكتبت في النهاية : نريد أن نتزوج بسرعة ، نفرح ، يشعر الناس بنا ، ونشعر بهم ، قدنا إلى النور ياسيدي ، ولك منا بالغ الإعجاب والشكر .

وضعت نقطة النهاية ، وكتبت تحتها اسماءهن الثلاثة ، ثم تنهدت بعمق ،

وقالت :

– يا الله نعمل شاي جديد ونشربه .

هل سيرد محرر القلوب التعيسة على هذه الرسالة ؟ هل ستكون إجابته طويلة أم قصيرة ؟ وهل ياترى سيحلّ المشكلة فعلاً ، ويدعو القراء للمساهمة في الحلّ كما يفعل عادة ؟! .

الحقيقة أن هذه الأسئلة دارت بذهن الشقيقات الثلاث ، وتبادلنها بصوت مسموع فيما بينهن ، بل لقد تمنّت فيفي أن يسارع أحد القراء ، وربما كان أرملاً ، أو صاحب عاهة أو مرض ، بطلب عنوانهن ، وأن يتقدم للزواج بواحدة منهن .

اخذن يتداولن ويفكرن ، بينما كن يحتسين الشاي الساخن ، الذي أعدته ميمي ، وبجانبهن جلست لولو تهر بسعادة ، كالمعتاد ، ثم رحن ينصورن حلولاً سعيدة كثيرة ، أرمل يشبه الأستاذ حسن يتزوج ميمي ، عجوز مشلول يُزَفّ إلى فيفي ، أعمى لايهمه الشكل في شيء ينجب من سوسو ستة أولاد .

تضاحكن وسرت بينهن موجة من السخرية ، والرغبة في المزل ، حتى أن ميمي اقترحت أن محرر القلوب التعيسة ربما ضحى بنفسه ، وتزوج فيفي في عملية انتحارية ، من أجل سعادة البشرية ، ظللن يضحكن ، ويقهقهن ، حتى طفرت دموع ساخنة من مآقيهن ، عند ذلك الحدّ ، تبادلن نظرات ذات معنى ، وتنهدن ، وتصعّبن ، ثم أن ميمي قامت إلى أوراق اللعب لتخلطها وترتبها من جديد ، أما سوسو فكورت الخطاب بيدها ، وطوّحته بعيداً على الأرض حيث تلقّفته لولو ، بعد أن انقضت عليه ، في قفزة رشيقة ، وحوّلته إلى لعبة من ألعابها الدائمة ، وهنا قالت فيفي وهي ترمقها باعجاب ، وترشف رشفة طويلة من كوب الشاي ، وتتنهد :

اقسمي الورق ياميمي وخلصبنا .







أحزان السادة المضحكة ومقالبهم غير المقصودة

رفع مدير الشركة العامة للأزرار ومستلزمات الخياطة سمّاعة الهاتف ، ليتّصل ببيته ، ويخبر زوجته بضرورة اعداد ملابس ملائمة للعزاء ، الذي سوف يتوجه إليه ، عند المساء .

زوجته الثانية طلبها بعد ذلك ، مباشرة ، وبعد أن لاطفها بعبارتين ، من عبارات الغزل غير الرفيع ، طلب منها إلغاء حجز بطاقتي الحفل ، الذي كان من المقرر أن يتوجها إليه ، في المساء ، ولما كان وضعها كزوجة ثانية حساساً بعض الشيء ، فقد طمأنها أنه سوف يذهب للعزاء في فاطمة هانم ظاظا ، والدة مدير الشركة السابق ، والذي كان يرأسه ، وأحيل للتقاعد منذ سنوات .

خلال النهار ، ذاته ، ضيّع عمال مصلحة الاتصالات العموميّة وقتاً لابأس به في إيصال مكالمات هاتفيّة بخصوص وفاة فاطمة هانم ظاظا ، أما عمّال محلات الزهور ، فقد قصفوا أعناق مايزيد على ألف زهرة ووردة ، كي يصنعوا منها أكاليل أنيقة موشّحة بشرائط بنفسجية عريضة ، أُرسلت وفقاً لرغبات السادة دافعي أثمانها إلى سرادق العزاء في فاطمة هانم ظاظا .

أما الصحف الثلاث ، المقررة على سكّان البلاد يومياً ، فقد تلقى المسؤولون عن أقسام الإعلانات فيها ، نصوصاً مدفوعة الأجر ، تنعي ببالغ الحزن والأسى ، وعبارات أخرى لم تعد ، لفرط ابتذالها ، تقطع نياط القلوب ، « المرحومة أخت ، أو والدة ، أو بنت عم ، أو عمّة فلان الفلاني ظاظا ، المدير في شركة كذا ، أو رئيس مجلس كذا ، أو اللواء كذا ، وهلم جرا».

لقد كان للنبأ تأثيره ، بالفعل ، في مواقع عديدة بالدولة ، فمثلاً ، إحدى الشخصيات المرموقة في الحزب الحكومي ، وجد في الذهاب للعزاء في فاطمة هانم ظاظا ، فرصة مواتية للتهرّب من حضور ندوة عامّة تناقش سياسة حزبه ، فيما يتعلق بالمشكلة التموينية . من ناحية أخرى ، اعتذر محامٍ كبير عن مقابلة موكّله ، في قضية خاسرة ، عند المساء ، للسبب نفسه ، وإذا كانت هذه أمثلة سلبيّة ، فإن الأمر لايخلو من إيجابيّات أيضاً ، فقد فكّر رئيس قسم حكومي صغير أن يطلب من ابن فاطمة هانم ظاظا ، الذي عمل معه لمدّة عشرين سنة ، في إدارة واحدة ، أن يتوسّط لتعيين ابنته الجامعية ، التي تخرجت حديثاً ، في أي شركة أو قطاع حكومي ، من القطاعات التي يهيمن عليها أقاربه ومعارفه ، أما مدير شركة السوائل الكيماوية ، والذي كان يعرف الابن نفسه ، معرفة جيّدة ، من خلال أحد نوادي الصفوة الاجتماعية الممتازة ، وهو نادي الطاووس الذهبي ، فقد فوجىء بالخبر الذي قرأه في صفحة الحوادث بالجريدة ، بينما كان يقوم بعملية إنزال متعثر في الحمّام ، عند الصباح ، وتأسف كثيراً لأن تموت امرأة غنية جداً كفاطمة هانم ظاظا ، هذه الميتة الفظيعة ، غير أن ذلك لم يمنعه من التفكير في أنّ ابنها سيرث ثروة لابأس بها تؤهله لأن يفاتحه ، مرّة أخرى ، في مشروع شركة الكيماويات الخاصة ، التي يرغب في إدخاله شريكاً له بها ، وكان ابن المرحومة قد اعتذر ، نظراً ، لعدم قدرته الماليّة .

وحتى قبل مساء ذلك اليوم ، كان كل شيء يجري على نحو طبيعي ، وسكرتيرو المديرين وصغار الموظفين ، وفراشو المكاتب ، الذين كُلّفوا بالاستفسار بسرعة ، عن مكان وموعد العزاء ، تلقوا جميعاً إجابة واحدة مقتضبة ، شاركت في العديد منها فاطمة هانم ظاظا بنفسها ، كلما كانت قريبة

من موضع الهاتف ، حيث كانت تردّ بوقار : حياتك الباقية ، إنشاء الله العزاء في جامع الأمراء الليلة ، البقيّة في حياتك . ثم تضع السماعة بهدوء .

عندما وصل رئيس شركة الأزرار ، ومستلزمات الخياطة ، إلى سرادق العزاء ، المنصوب بجوار جامع الأمراء في المساء ، لم يجد فيه أحداً ، من أهل المتوفاة ، استطاع التعرف عليه لا ابنها ، رئيسه السابق ، ولا أحداً من أولاده ، الذين يعرفهم جيداً ، فجلس بهدوء يستمع إلى ماتيسّر من تلاوة قرآنيّة . الشيء نفسه حدث لكل الذين نشطوا في الصباح ، وسارعوا بإرسال الزهور ، وتدبيج صيغ النعي ، وأمروا موظّفيهم بإجراء الاتصالات الهاتفيّة ، فكانوا ينزلون من سيّاراتهم بوقار ، وعندما يقتربون من السُرادق المقام بالجامع ، ويقرأون اللافتة العريضة ، المكتوب عليها اسم المتوفى ، يكتشفون أنهّ ليس اسم فاطمة هانم ظاظا ، فيتملّكهم الخجل ، ويدخلون السُرادق ، ولايستطيعون التراجع ، بينما القرآن يتُلى ، وأهل المتوفى في حالة خشوع حزين .

مدير شركة السوائل الكيماوية ، الذي يمكن القول عنه أنه شخص غير صبور ، لم يتمالك نفسه عندما رأى رئيس شركة الأزرار ، الذي كان زميلاً له ، خلال بعثة الدكتوراه في أمريكا ، فتوجّه إليه ، وجلس إلى جانبه ، وسأله في لهفة واستغراب : هل شُفت ابن المرحومة ؟

ولما نفى مدير شركة الأزرار أن يكون قد شاهده ، وأكّد أيضاً ، أنه لم ير أحداً من أقارب المتوفّاة ، وهو يعرف بعضهم ، ثم أن اللافتة لم تشر إلى اسم المرحومة ، كما هو واضح .

عند ذلك ، لم يتمالك عضو الطاووس الذهبي نفسه فهبّ واقفاً ، لينسحب ، ثم ليأمر سائق سيارته بالبحث عن جامع آخر للأمراء في المنطقة ، أو أي جامع سواه ، به سرادق للعزاء ، فلم يجد ، ولذا اقترح السائق العجوز ، الذي ملّ التجوال في المدينة ، على مخدومه معاودة الاتصال الهاتفي ببيت فاطمة هانم ظاظا للاستفسار . في هذه المرّة ، ردّت الخادمة ، وأبدت ضيقها الشديد لأن الوقت متأخر وليس موعداً لمكالمة ، ودهشت جداً من الاستفسار

السخيف ، عن مكان العزاء ، في سيدتها ، على وجه التحديد ، ولمّا كانت حمقاء ، متهوّرة ، لها رأس ضخم لا يحوي بداخله إلا مخّ دجاجة صغيرة ، فقد سبّت المتحدث على الطرف الآخر ، بسرعة ، ثم أغلقت الخط في وجه السائق ، وراحت تتأسف لوقاحة الناس ، التي بلغت حدّ المعاكسة ، بالهاتف ، على هذا النحو .

كان الغيظ قد بلغ حدّه برأس عضو الطاووس الذهبي ، وكذا كانت حال الجوع ببطنه ، فأمرَ سائقه أن يتوجّه إلى مطعم فندق كبير ، اعتاد تناول عشائه فيه ، وهو يراقب أفخاذ راقصة سمراء ، تتمايل على دقات الطبل .

ثم أن الجميع باتوا في حيرة من أمرهم ، ولأنّ الموقف كان غرائبياً بالنسبة لهم ، وغير مفهوم أبداً ، ولأنّ ماحدث كان محور كلامهم ، سواء مع زوجاتهم ، أو عشيقاتهم ، في بداية الليل ، بسبب كل ذلك اللغط ، واللغو ، والتفسيرات ، والتحليلات ، التي تداولوها ، فقد احتلّت فاطمة هانم ظاظا أيضاً الوقت المخصص لأحلامهم هذه الليلة .

مدير شركة الأزرار حلم أن المرحومة قامت بافتتاح خط إنتاجي جديد ، في المصنع ، أنشيء تماشياً مع سياسة الانفتاح الجديدة ؛ كانت تتفقد الأزرار الفاخرة المصنوعة من الزجاج النقي ، والماس الصناعي ، بينما هو يدلي بتصريح للصحافة ، يؤكدّ فيه أن هذا الخطّ أقيم خصيصاً ليلبّي الحاجة إلى أزرار المنامات الشعبيّة ، وجلاليب الصعايدة والفلاحين ، بواقع خمسين زراً لكل مواطن في السنة ؛ وأنها بعد قصّ شريط الافتتاح ذي اللون البنفسجي ، قامت بابتلاع زر كبير ، كادت أن تختنق به ، مما دفعه لأن يهجم عليها ، ويطرحها على رأسها ، وفقاً لطريقة زرع البصل ، ثم ينادي جميع المدعوّين ليشاركوه الخبط على مؤخرتها حتى تتقيأ مابلعته .

أما عضو الطاووس الذهبي ، فقد حلم أنه التقى فاطمة هانم في الطريق ، ثم أغواها ، فقبلت ، بعد تمنّع ، دعوته على العشاء في مطعم الفندق ذي النجوم الخمسة ، الذي تعشّى فيه فعلا منذ ساعات ، وبينما هو يراقصها ، على موسيقى ناعمة ، تحت أضواء خافتة ، قام بقرصها من أذنها بشدّة ، وهو

يهددها لتعطيه كل الفلوس ، التي معها ، وإلا فصل أذنها عن رأسها ، وأنها أخذت تتأوه ، ولكن أحداً لم يعرها اهتماماً ، ظناً أنها تأوهات استمتاع بأشياء تحدث في ظلّ هذه الأضواء ، الخافتة ، عادة .

والحقيقة أنّ هذه الأحلام لم تكن نهاية الحكاية التي تعقدّت جداً في صباح اليوم التالي ، فبمجرد أن وصل مدير شركة الأزرار إلى حجرة مكتبه ، المبطّنة بالجلد ، في مقرّ الشركة ، وقبل أن يضغط على الجرس ، الموضوع إلى جواره ، ليطلب قهوته الصباحيّة ، ويقرأ اسمه المنشور في الجريدة بالبنط العريض ، معزّياً في فاطمة هانم ظاظا ، رنّ الهاتف الموضوع أمامه رنّاتٍ ملحّة وكان المتحدّث ، رئيس الشركة السابق ، ابن فاطمة نفسه ، الذي جاء صوته مهتاجاً ، وغاضباً جداً ، لما ابتدره ، قبل صباح الخير ، قائلاً : كلام فارغ ، سخافة متناهية . ثم أنت محتاج حاجة بعد الشركة ، أنا تركتها لك ، وخلاص ، ابعد عني يا أخي . ثم أغلق الخطّ بعنف كما لو أنه سدّد لكمة لأنف مدير الأزرار ، الذي يبدا ، ربما بحكم طبيعة العمل ، أشبه بزر مستدير ، ذى ثقبين .

عمّال الاتصالات العمومية ، شاركوا ، خلال هذا اليوم ، في مهمة توبيخ الطاووس الذهبي ، من خلال استجابتهم النشطة ، لطلبات مكالمة كلّ الذين نشروا النعي في الصحف ، ضمن خطة ابن فاطمة هانم ظاظا ، لكن بحكم أخوّة الطاووس الذهبي ، وقوانين النادي الصارمة ، باعتباره فرعاً لنادٍ دولي ، له فروع فى جميع أنحاء العالم ، فإن غضب ابن فاطمة الهادىء ، سمح له أن يفسّر الموقف ، مؤكّداً له أن سكرتيرته اتصلت ، صباح أمس ، بالفعل بالبيت ، وتأكّدت من موعد العزاء ، ثم حكى له عن دهشته من عدم وجوده في العزاء ، ولم يحك له عن الحلم بالطبع ، وبدأت المسألة تتضح شيئاً فشيئاً

لقد مات جارٌ لفاطمة هانم فى العمارة ، وكانت تظنّ ببراءة من تخطّى السبعين ، من العمر ، أن المكالمات كانت بخصوص العزاء في الجار المتوفى ، الذي لم يكن يحمل اسم ظاظا اطلاقاً ، وكانت تردّ بمنتهى الرضا ، لتدلّ المعزين على مكان العزاء . هدأ الإبن قليلاً . ثم أنه في اليوم التالي ، نشرت الصحف الثلاث ، في عدة سطور ، تحت عنوان « توضيح » مايلي : « جاءنا من السيّد

الدكتور عفت ظاظا أن والدته السيّدة فاطمة ظاظا بخير ، ولم يصبها أي مكروه ، وأن لاعلاقة ، من قريب ، أو بعيد للخبر المنشور بصفحة الحوادث ، يوم كذا ، بها ، فلزم التنويه » .

أما الخبر الذي كان قد نشر بصفحة الحوادث ، يوم كذا ، فكان كالآتى : « لقيت سيّدة عجوز تدعى فاطمة ظاظا مصرعها فى الطريق تحت عجلة عربة بحار مسرعة ، أردتها قتيلة على الفور ، وقد قُيّد الحادث قضاء وقدراً ، لأن السيّدة كانت تُعاني من التهاب في القرنيّة ، وضعف بصرٍ حادٍ ، وقد أمر المحقق بدفن الجثة » .

مناسبة للسعادة

□ ياذا الهنا .. ياذا الهنا

ما كان ذلك اليوم عيداً كبيراً ، ولا صغيراً ، وما كان فرحاً من الأفراح ، إلا أن حالة الاستعداد الأقصى كانت قد أعلنت ، منذ طلعة الصبح ، لدرجة أن أبا فوزية ـــ التي سَمّاها بهذا الإسم لكونها ، ولدت يوم زُفّت الأميرة فوزية إلى شاه إيران ـــ ضرب الدنيا صرم ، ولم يذهب للمصلحة كعادته ، وهو الذي لم يحصل على إجازات أبداً ، ولا حتى العارض منها إلا في الظرف الشديد القوي ـــ فلقد قرّ قراره ، ومال إلى رأي زوجته القائل أن « الوقت ضيقّ ، والدنيا شتاء ، يعني اليوم – « بسم الله الرحمن الرحيم » –معفرت ، فبمجرد أن تفطر ونلم مطرح الأكل ، يكون الظهر قال الله أكبر ، والنهار خلص » . لذلك صحا الجميع مبكرّين ، وأكلوا لقمة مع الشاي ، ثم ذهب أبو فوز للحلاق ليأخذ شعره وذقنه ، وانصرفت أم فوز لشؤونها ، فأخذت تحضّر الغذاء ، وتجمّل حواجبها ثم أنها أدخلت العيال الحمّام ، أما فوزية نفسها ، والتي كانوا ينادونها فوز ، تحبباً ، فقد ذهبت ، بعد الحمّام ، إلى الحاجة أمينة في الدور الرابع بالعمارة ، فكوت لها المرأة المحنّكة شعرها الخشن ، وعملته على

هيئة بلمحات كبيرات ، مستعينة على ذلك بأقلام الرصاص ، فبدا جميلاً لامعاً بلونه البني الداكن . وأصبح رأسها الصغير يشبه ، من بعيد ، رأس الملكة مقصوفة الرقبة ماري انطوانيت . وبالإضافة إلى هذه الخدمة الممتازة ، من الحاجة أمينة ، تفضلت تلك الجارة الطيبة ، مشكورة ، بإقراض أم فوزية معطفها الأسود ذي الأزرار الستة ، والذي كانت ياقته الضخمة فراء أرنب لونه أسود في أبيض ، وقد قامت أم فوزية بتثبيت مشبك من الماس الصناعي ، بطرفه ، كان على هيئة تمثال الحرية الشهير .

حتى الساعة الخامسة تقريباً ، لم تكن هناك تفاصيل أو أحداث هامة تستحق الذكر ، باستثناء إقبال عائلة فوز على التهام دجاجة وديك ذبحتهما أمها ، احتفاءً بهذه المناسبة السعيدة ، والحقيقة أنها كانت ستذبحهما إن عاجلاً أو آجلاً ، حتى لو لم تكن هناك مناسبة ، لأن الدجاجة صارت تأكل بيضها ، بمجرد أن تضعه ، وفشلت معها كلّ الحيل حتى ترعوي وتمتنع ، أما الديك ، فرغم أنه عتيق ، وعاش عمره بما يكفي ، إلا أنه لم يكفّ عن أعمال الشغب والشقاوة في السطح ، وظل يصرّ على خوض معارك فاشلة مع ديك آخر فتي . بالإضافة إلى ذلك ، قامت فوز بتوصيل طبق بسبوسة للحاجة أمينة من صينية صنعتها أمها تأكيداً على الرضا والسعادة في هذا اليوم المشهود ، وما عدا هاتين الواقعتين ، فقد كانت بقية الأحداث تتجسد حلماً في ذهن أخي فوز الصغير ، الذي تصور أن جائزة أخته ستكون بندقيّة كبيرة فخمة ، وفي تصور آخر صغيرة وعادية ، وربما كانت مسدساً يرشّ الماء ، وقد ظلت الصور تتلاحق وتتواصل في ذهنه حتى اللحظة التي تقبّله فيها أخته ، وتقول له : خذها لك ياحسن ، فأنا بنت ، ولا أحب اللعب بالبنادق والمسدسات ، فيشكرها ، ويطير بالجائزة ، جارياً للشارع ، ليباهي بها كلّ العيال ، الذين يتوسلون إليه أن يدعهم يلهون بها قليلاً ، أو حتى مجرد أن يلمسوها ، فيرفض ، وينظر باحتقار لكل بنادقهم ومسدساتهم التافهة المصنوعة من قطع الخشب القديم ، ومشابك الغسيل ، ويسخر من ذخيرتهم ، التي لم تكن سوى نوى البلح الملموم من أرض الحارة .

أما أبو فوز ، فكان ، على عكس ابنه تماماً ، لا يفكر في شيء عينيّ ، كان

فقط يتمنى مبلغاً من الفلوس ، بحدّ أدنى ثلاث جنيهات ، يسيّر بها نفسه وأمور بيته حتى نهاية الشهر ، وكان يتنامى لديه شعور داخلي بعدالة منطقه كلما اقتربت الساعة من الخامسة ، وخصوصاً أن حماسه لهذه المناسبة كان قد خبا قليلاً ، ربما بسبب الدجاجة التي افترى ، بعض الشيء ، في التهامها ، وربما لكونه تهور ، وأنفق فيما لا لزوم له ، خلال ذلك النهار ؛ الحلاقة التي كان يمكن تأجيلها ، وحذاء فوز الجديد ، بالإضافة إلى صينية البسبوسة التي كان يمكن الاستغناء عنها ، والاكتفاء بالشاي كحلوى ما بعد وجبة الغداء . أم فوز كانت تستحم آنذاك ، تتويجاً لجهدها المبذول طوال اليوم ، وبينما كانت تفرك بطلتي ساقيها ، اللتين نفرت عروقهما من شدة الوقوف والتعب ، وتغني بصوت مبحوح : « جاب لي القبقاب في وابور ركاب » ، ظلت تردد لروحها بين الحين والحين ، وهي تتصعب : « آه لو تكون جائزة فوزية حاجة تنفع في البيت » . أما هذه الحاجة النافعة ، فكانت أشياء لا حصر لها ، تبدأ ببطانية صوف ترمُّ عظامهم في الشتاء ، وتنتهي بحقيبة جلدية جميلة لفوز ، بدلاً من المخلاة المصنوعة من التيل ، التي تحملها كل يوم على كتفها وهي ذاهبة للمدرسة . والحقيقة أن فوز نفسها لم تفكر في الهدية كثيراً ، لأنها كانت مشغولة ، وسعيدة ، بكل هذا الاستعداد المخصص لها ، لقد بلغ حماسها وانفعالها بهذه المناسبة الحدّ الذي جعل وجنتيها تحمّران لأول مرة في تاريخ حياتها ، حيث كانت دوماً مصفرّة الوجه ، ضعيفة البنية ، ربما بسبب إفطارها الذي يتكون عادة من الخبز المغموس في الشاي ، أو لأنها لا تأكل اللحوم والفواكه ، إلا فيما ندر ، وعلى أية حال ، فهي مثلها مثل الجميع ، لم تشاهد أي كائن متورّد الخدّين إلا في الإعلانات ، أو في المجلات الملوّنة .

□ على خيرة الله

في حوالي الخامسة ، تحرك موكب آل فوز ، ومعهم خديجة بنت الجيران ، التي أتاحت بطاقة الدعوة اصطحابها أيضاً ، لأنها كانت مقصورة على خمسة أفراد وإلا لكانوا أخذوا معهم كل الجيران والأحباب ، الذين عرفوا أن فوز سوف تتسلم جائزة من المدرسة ، فوقفوا يطلّون من الشبابيك والأبواب في

اعجاب ، حيث سارت أم فوز بهدوء ، إلى جانب زوجها ، الذي خطا مشرئب القامة ، بشاربه المتلري ، الذي ظل محتفظاً به ، ربما كشاهد حي على فظائع الحرب العالمية الثانية ، التي لم يشارك فيها إلا بالاختباء في بئر السلم مع بقية الجيران ، وقت الغارات . وكانت فوز متألقة فعلاً في فستانها التافتاه الأزرق ، الذي احتفظ قماشه برونقه ، رغم أنه كان ، في الأصل ، فستاناً لأمها فشلت في ارتدائه بعد أن سمنت وزاد وزنها لمّا حملت وولدت ، ويمكن القول أن فوز شعرت ، لأول مرة في حياتها ، بأنها كبيرة ، ويجب أن تكون عاقلة ومهذبة ، تتحدث بصوت خفيض ، كما تطلب منها أمها دوماً ، ولا تلعب « حجلة » في الحارة ، وقد تزايد في داخلها هذا الشعور بعدما تملّت نفسها في المرآة وأيقنت كم هي جذابة ، بشعرها المرتب ، وحاجبيها المهذبين ، لكن كان هناك شيء واحد يؤرّقها هو الحذاء الجديد الواسع ، الذي يعوق حركتها بعض الشيء ، فلقد أصرت أمها على شرائه واسعاً ليبقى صالحاً للاستخدام في السنة المقبلة ، نظراً لتمدد قدمي فوز المستمر ، الذي لا يمكن كبح جماحه ، ورغم أن أمها حشرت فيه تحقيقاً مصوراً امتد على أربع صفحات رئيسية من مجلة آخر ساعة ، وزعتهم في كل فردة عند البوز ، لكنّ المسكينة ظلّت مضطرة لجرجرة رجليها على الأرض ، ولم تتمكن من النطّ والدبيب ، كما تتمنى ، في سهولة ويسر ، ولكن عموماً ، لم تحزّ هذه المسألة البسيطة في نفس فوز كثيراً ، لأنها ظلت فرحة جداً ، لدرجة أنها بمجرد وصولهم للمدرسة ، تركتهم جميعاً لتنضم إلى بقية زميلاتها اللواتي سيقدّمن العرض الغنائي الراقص في الحفل . أما أهلها وخديجة ، فقد راحوا يتّخذون أماكنهم على الكراسي ، التي ماكادوا يلامسونها بمؤخراتهم ، حتى اعتدلوا واقفين ، لأن الستارة كانت قد فتحت ، وعزفت الموسيقى لحن « نسر مصر ارتفع ، واعلُ طول الزمن » ، وساد الصمت احتراماً للسلام الجمهوري ، ثم جاء مقدّم الحفل بعد انتهاء ذلك ليعلن عن بداية البرنامج بخير الكلام وأعظمه ، فجاء شيخ وجلس على كرسي مذهب عالٍ ، ووضع على خشبة المسرح ، وراح يرتّل : « فبأي آلاء ربكما تكذبان » ، وكان صوته مؤثراً جداً ، فلكز أخو فوز أمّه ، وتساءل بدهشة : هل مات جدي مرة أخرى ؟! . أما الفقرة التالية

فكانت كلمة المربّية الفاضلة ، ناظرة المدرسة ، كما أعلن مقدم الحفل ، فسارعت الفاضلة ، التي كانت عجّوزاً من اللواتي حرمن الزواج بسبب قانون التربية والتعليم الذي يمنع الأوانس من الزواج نهائياً ، وإلا طردن من العمل . سارعت بتحية الحضور وشكرهم ، وتبيان الهدف من الحفل ، وأهمية دور التعليم في هذه المرحلة الخطيرة من حياة الأمة المصرية ، ثم وصلت إلى الموضوع الرئيسي في كلمتها ، فشتمت الاستعمار والصهيونية ، وحيّت مدينة بورسعيد الباسلة ، التي صمدت لغدر ثلاث دول فلما صفّق الجميع بحرارة عند ذلك الحدّ ، زادت في كلامها وعادت ، والناس تصفّق ، فلما دعت العلي القدير أن يحافظ على الثورة وقائدها ، عرف الجميع أن خطبتها أوشكت على الانتهاء ، ولم تخيّب ظنّهم ، فقالت : والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فتعالى تصفيق فاتر ، وهمهمة مختلطة بسعلات المدخنين وصراخ الراضعين ، الذي لم يتوقف بعد أن فتحت الستارة بمجرد اغلاقها ، فظهرت فوز مع البنات والأولاد لتغني : « سدّ يا لندن سدّ .. خلي باريس تنسدّ » ، ولمّا كان أخوها يعرف بقية النشيد ، وكذا أطفال كثيرون يبدو أنهم سمعوه من قبل ، تعالت أصواتهم مع المنشدين على الخشبة : « وهيا نبني السدّ .. ولا نسأل عن حدّ » . فبدا الانشراح والبشر على وجوه الناس ، ودمعت عينا أم فوز لشدة انفعالها وتأثرها ، بينما الفقرات المعدة للحفل تتوالى وتذاع ، وحماس الجمهور يلتهب ، وقد بلغ ذروته . لمّا غنّت فتاة صغيرة ذات صوت عميق : « ياغادر يا صهيوني .. أفدي فلسطين بعيوني » ، فصفق الرجال ، وزغردت النساء ، وراح أبو فوز يهزّ فخذيه بشدة ، وهو جالس ، وكانت هذه عادته عندما ينفعل ، فاضطرب ابنه الجالس إلى جواره لذلك ، وتصور للحظات قصيرة أن أباه سيضرب أمه .

أخيراً جاءت لحظة توزيع الجوائز ، فصمت الجميع وترقّبوا ، وتطلّعت الأعناق بشغف إلى الباب الخلفي لخشبة المسرح ، حيث ستهلّ السيدة الناظرة لتعلن أسماء التلاميذ المتفوقين وتعطي لكل منهم جائزته .

مرت فترة ثقيلة بعد ذلك ، لم يعد مهماً سرد ما جرى خلالها ، لكن الجميع خرجوا من المدرسة حيث سار أبو فوز في الشارع بخطوات متثاقلة ،

يفكر في ضرورة شراء دواء جديد لآلام معدته ، بدلاً من ذاك الذي انتهى ، وفي حاجته لمضاجعة امرأته عند الليل ، حتى ولو كانت في أيام الحظر ، خصوصاً وأن صورة المرأة ذات الرداء الأحمر المنقّط ، التي كانت تجلس على مقربة منه ، واضعة ساقاً على ساق ، ومبرزة ركبتيها البيضاوين ، لم تفارق رأسه بعد ، فراح يربت على ذراع زوجته المتشبثة به لئلا تسقط ، حيث بدأ كعب الجزمة يخل بتوازنها بعض الشيء . وراءهم مشى أخو فوز يصرخ باكياً ، طالباً أن يحملوه لأنه يريد النوم ، بينما ظل يشتم خديجة متهماً إياها بأنها داست على رجله ، أما فوز فكانت تحملق بلا مبالاة ، مفكرة في أن تتجرأ وتطلب من أمها شراء حلاوة طحينية ليتمشوا بها ، وكانت ، آنذاك ، تحمل في يدها مصحفاً صغيراً ، كتب على غلافه الداخلي : إلى الطالبة المجدّة فوزية محمّد فريد بمناسبة تفوقها في امتحان آخر العام ، وأسفل ذلك الختم المطبوع ، وفيه شعار الجمهورية ، ثم اسم المربية الفاضلة ناظرة المدرسة وتوقيعها .

الحلم الأميركي

تعلّقت أبصارهم . بباب القادمين من السفر ، كانوا قد وقفوا ينتظرون حوالي ساعة ، ورغم ذلك فأقدامهم لم تملّ الوقوف ، لأن الرغبة الجارفة في لقاء فريد جعلتهم مستعدّين للوقوف ساعات أخرى في انتظاره ، فبالإضافة إلى السنوات العشر للغربة ، التي قضاها بعيداً عنهم ، ها هو يعود إليهم متزوّجاً ، أيضاً ، من فتاة أميركية ، سوف يرونها ، لأوّل مرّة في حياتهم ، بعد قليل ، ولسوف تعيش بينهم ، كما قال فريد في خطابه الأخير ، لأنّه ينوي الاستقرار في مصر .

برزت من الباب امرأة شقراء تحمل حقيبة صغيرة ، فهتف ناجي ، الأخ الأصغر لفريد ، ربما كانت هي ، ولما لم يكن بجانبها أيّ رجل ، استبعد الجميع أن تكون هي الزوجة الأميركية لفريد .

بدّلت الأم من وضع ساقيها ، المتعبين من طول الوقوف ، ثم اقترحت على نفسها أن تجلس قليلاً على مقعد من تلك المقاعد المخصصة لجمهور المنتظرين ، التي يفصل بينها وبين صالة القادمين سياج حديدى ، أتاح لها فرصة الاستمرار

في التطلع إلى باب القادمين . جاءت ابنتها ، وجلست إلى جانبها لتستريح بدورها ، ثم قالت :

– سامية ، بنت عمّي ، مفروسة من الغيظ .

كانت الأم تتأمّل بإعجاب حذاءها الجديد اللامع ، الذي اشترته خصيصاً لهذا الاستقبال ، منذ ساعات قليلة ، فقالت بثقة ساخرة .

– كان عشمها فيه ، عشم إبليس في الجنة .

وأردفت ، كانت متصوّرة أن غرامها باق في قلب فريد طوال العمر ، وأنّه بعدما ينهي دراسته ، ويرجع ، ممكن أن يرتبط بها ، لكنّ عشر سنوات ، تُنسي الإنسان ، وتغيّر منه ، وفريد ، كان من المستحيل أن يفكّر في المسألة مرّة ثانية ، لأن وضعه تغيّر عن السابق ، وأصبح دكتوراً في الجامعة ، ومستحيل أن يرتبط بواحدة تعليمها متوسط ؛ عموماً هي أصبحت مخطوبة ، وبكرة تدخل بيت العدل ، والموضوع كله يصبح في خبر كان .

لم يعجب هذا الكلام الإبنة ، التي كانت تريد أن يستمر الكلام في هذا الموضوع ، فنار الغيرة من ابنة عمّها تحرق قلبها ، فوجدت الفرصة مواتية لتقول :

ــ ثم أنها مسخت جداً ، بعدما سمنت وقصّت شعرها ، وبان قصر رقبتها ، وفريد ، محتمل أن تصعب عليه معرفتها لمّا يشوفها بعد كلّ هذه الغيبة الطويلة .

أنهت الأم المسألة بحسم ، كارهة التمادي في النميمة على هذا النحو ، فقالت :

ــ أصبحت شكل أمها وأهلها .

صمتت ، وراحت تتخيّل ، في سعادة ، شكل زوجة ابنها البكري ، تلك الأميركية ، التي سوف تراها بعد قليل ، فهي ستكون غالباً ، شقراء ، رائعة ، كالنسوة اللواتي تراهن يمتطين صهوات الجياد ، خلف الرجال ، في التلفزيون ، إنها بالتأكيد ستكون جميلة ، رقيقة ، ذات صحّة ورشاقة ، تنهّدت ، وتمنّت

أن ينجب ، منها أبنها دستة من الأولاد ، لتكون جدّة لهم ، تفخر بهم أينما ذهبت ، وكانت تفكّر في الوليمة التي ظلّت تعدّ فيها يومين كاملين ، بمناسبة قدوم العروس والإبن الغائب ، وهل ترى سوف تعجبها أصناف الطعام ، الذي بذلت كل ما يمكن ، ليكون متقناً لذيذاً ، ولم تبخل ، في إعداده ، بأغلى أنواع اللحوم ، والطيور ، والسمن البلدي الأصيل .

دعت الله في سرّها ، أن يصلا بالسلامة ، وأن يُوَفق بقيّة أبنائها في زيجات ممتازة مماثلة لزيجة فريد ، أما نادية ، ابنتها الوحيدة ، فكانت همّها الأول ، وهاجسها المؤرّق للياليها دوماً ، فهي قد بلغت الثامنة والعشرين ، منذ عدّة شهور مضت ، وتخرّجت من الجامعة ، منذ فترة ، لكنها لم توفّق ، حتى الآن ، في عريس يناسبها ، رغم أنها حلوة ، ومهذبة ، وعائلتها مستورة ، شعرت بغيظ ، فزفرت وقالت :

ــ كفاية تأخير .. مفروض أن الطيّارة وصلت من حوالي ربع ساعة .

ردّت نادية بسعادة :

ــ احتمال أن تكون شيلهم كثيرة ، ومتعطلّين في الجمرك .

جاء ابو نادية وعمّها وجلسا بجانبيهما ، وأخذ العمّ يواصل تفكيره في مسألة تلحّ عليه ، منذ أن سافر فريد إلى أميركا ، وهي : كيف أنه متطرف ، ومع ذلك وافق الأميركان أن يكمل دراسته العليا عندهم ، ودّ لو استطاع مفاتحة أخيه في هذا الموضوع ، لكنه خجل ، لأنه أيام المظاهرات ، في الجامعة ، قطع علاقته به ، ومنع أولاده من زيارة بيته ، حتى لا يتأثروا بأفكار فريد الهدّامة ، بخصوص الأميركان والحكومة ، والكلام الذي كان يقوله عبد الناصر والشيوعيون ، فأولاده وقتها كانوا صغاراً ، في سنّ طيش ؛ فكّر في صيغة مقبولة للكلام ، وأخيراً سأل أخاه :

ــ يا هل ترى أفكار فريد اختلفت عن الأوّل ؟!.

قال الأب بضيق :

ــ الحياة في أميركا تغيّر الحجر .

ثم أشعل سيجارة لنفسه ، وراح يتطلّع إلى ابنه الآخر ، المنتظر ، دونما ملل، خلف السياج ، لأخيه العائد من أميركا ، بينما ظلّ الابن مركزاً ناظريه باتجاه باب دخول العائدين ، مُفكّراً في الأسلوب الأمثل للاحتفاء بأخيه ، وزوجته الأميركية .. هل من الأفضل أن يأخذهما إلى سهرة رائعة في مركب عائم بالنيل ، أم يصطحبهما إلى عشاء فاخر بأحد الفنادق الفاخرة ، وسرعان ما داخله الضيق لأنه لا يجد خيارات عديدة أخرى في البلد ، وتأكّد من جديد أنها بلد متخلّفة فعلاً ، وإمكانية المتعة فيها محدودة جداً ، وفكّر في أن أوّل شيء سوف يفعله عندما ينهي دراسته الجامعيّة ، التي مازال أمامه عام كامل لينهيها ، هو أن يسافر فوراً ، ولعلّ أخيه يستطيع أن يحقق له حلم العمر ، ويساعده في السفر إلى أميركا ، وإيجاد فرصة عمل له هناك ، وعندئذ فلابدّ أنه سوف ينشىء علاقة مع فتاة أميركية ، جميلة ، شقراء مثلما يتمنى دوماً ، وربما تزوّجها بعد ذلك لأن الأميركيات مثل الأوربّيات ، ليست لهن مطالب زواج من مهر وخلافه ، بالإضافة إلى أنهنّ سلسات جداً .

مال العمّ على أخيه ، متشكّياً ، في محاولة جديدة لقتل زمن الانتظار .

ـــ تصوّر ، الولد ، خطيب سامية بنتي ، رافض أن يكتب خمسة آلاف جنيه مؤخر صداق ، وكلّما كلّمته في موضوع المطبخ والنجف ، يماطل : وآخر مرّة قلت له : آخر مهلة لك حتى نهاية الشهر ، ثم يصير لي كلام جديد معك .

نظر الأب إلى ابنته الجالسة إلى جوار أمها ، بقلق ، وتمنّى لو أنّ أخاها يشوف لها واحداً من زملائه ، في أميركا ، تتزوّج منه ، عندئذ لن يطلب منه أي شيء ، لأنه يتمنّى أن يسترها ، والسلام فهي كا الهمّ على قلبه ، وخصوصاً بعدما بلغت الثامنة والعشرين دون أن تتزوّج .

صاح الأخ الأصغر ، فجأة : فريد وصل ، فهبّ الجميع من أماكنهم واقفين لاستقباله ، وكانت نادية تفكّر في الكلمات الانجليزيّة التي سوف تنطقها مرحّبة بزوجة أخيها الأميركية ، وارتبكت قليلاً لأنها لا تعرف معنى

كلمة مبروك بالانجليزية ، بل واغتاظت لأنّ أخاها الصغير لم ينبهها إلى ذلك ، جرت إلى فريد ، الذي كان قد عبر السياج إليهم ، وارتمت عليه تقبّله وتحتضنه ، ثم أنها نظرت إلى المرأة الواقفة خلفه ، تنتظر دورها في التحية ، بدهشة ، فقال فريد موضحاً :

ـــ نورث .. عروستي .

حياها الجميع متخاذلين ، سلّمت عليها الأم بفتور ، يعكس خيبة أمل ، بينما أخذت في تفحّصها ، ولمّا شعرت أن ابنها ، العائد ، لاحظ ذلك استدركت قائلة :

ـــ اسم النبي حارسها وصاينها .

بينما ظلّت تحملق في وجهها ذي البشرة المصفرّة وعينيها الضيقتين المسحوبتين إلى أعلى ، عند الزوايا الخارجية لهما ، وأنفها القصير الأفطس ، بينما شعرها الناعم ينسدل على أذنيها الصغيرتين ، كانت قد أصيبت بدهشة شديدة ، لم تستطع إخفاءها حتى بعد أن ركبوا السيّارة قافلين إلى المنزل ، وكان صمت قد بدأ يشملهم ، بعد تبادل عبارات الترحاب والشوق ، فقال فريد بسعادة :

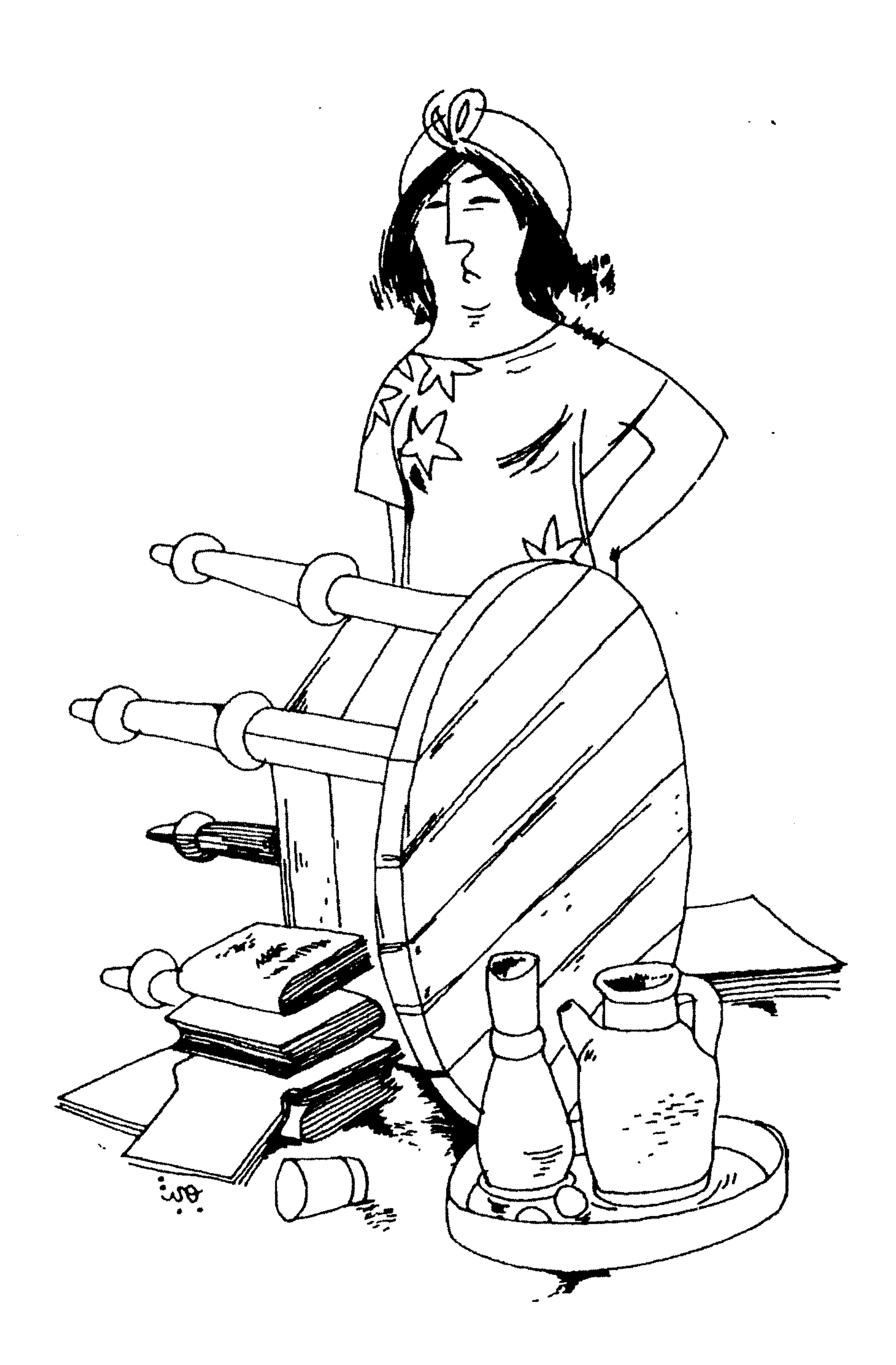
ـــ بالمناسبة ياجماعة نورث أصلها من الأسكيمو .

ثم راح يقصّ عليهم ظروف زواجه السريع منها ، فهو لم يكن يفكّر في الزواج من أميركية أبداً ، رغم السنوات الطويلة التى قضاها هناك ، والتي كان فيها متفرغا تماماً لدراسته ، ولكنه منذ عدّة شهور أصيب في حادث سيارة ، وكانت نورث ممرّضته ، التي ظلّت ترعاه ، وتقف إلى جانبه نفسياً ، في المستشفى حتى شفي تماماً ، وربّما فسّر ذلك كونه لم يكتب لهم طوال تلك الفترة ، ولم يخبرهم بتفاصيل زواجه المفاجىء منها .

كانت آلام المرارة ، المعتادة ، قد بدأت تعاود الأمّ ، في هذه اللحظات ، حيث أخذ ينتابها شعور بالغثيان والدوار بين الحين والحين ، وكانت تفكّر : هل يمكن أن تكون هذه المرأة أميركية فعلاً ، مثلما تظنّ بالأميركان ، ثم ما هذا

الفستان القطني الرخيص ، ذو اللون الباهت الأجرب الذي ترتديه ؛ كانت تفكّر في منظرهم عندما ينزلون من السيّارة ويراهم الجيران ، الذين عرفوا خبر عودة فريد ، وعروسه الأميركية ، عندما يتلصصون عليهم من الشبابيك والشرفات ، وكم ستفرح سلفتها وتتشفى فيها ، وربما تنذّرت على تلك الأميركية العجيبة ، والأدهى عندما تقول لها أنها تعمل ممرّضة .

لمّا بلغوا البيت ، كان الشقيق الأصغر قد قرّ قراره على إلغاء الدعوة الفاخرة ، والاكتفاء بمصاحبتهما لاحتساء البيرة في مكان على النيل ، أمّا الأب فكان ينظر إلى ابنته ، التي كانت مافتئت تقضم أظافرها بقلق ، بين الحين والحين ، ويزفر بحرارة مؤكداً لنفسه أن الدنيا حظوظ فعلا ، بينما كان عمّ فريد قد أيقن في قرارة نفسه أن فريداً لم يتغيّر كثيراً رغم كل السنوات الطويلة ، التي قضاها في أميركا .





الطرح السود

أغلقت الباب خلفهم ، بعنف ، ولما توقف وقع خطواتهم على السلم ، استدارت تتفحص الأشياء بعينيها ، كانت الصالة الصغيرة تبدو وكأن عفريتاً قد غادرها للتو ، بعد أن قلب محتوياتها ، رأساً على عقب ، حيث استقرّت المنضدة الخشبيّة القديمة على جانبها ، وتكوّم كل ما عليها ، من كتب ، وملاعق وصحون ، وأشياء أخرى ، على الأرض ، أما الأريكة التي كانت تستخدم كسرير لمصطفى ، في الليل ، ومكاناً لاستقبال الضيوف ، في النهار ، فقد برزت أحشاؤها بعنف ، كما لو أن سيارة اقتحمت عليها مكانها ، تحت الشباك ، ودهمتها فجأة ، ومن بين كلّ الأشياء التي حاولوا اسقاطها عن الحوائط ، كالساعة القديمة ، ذات الرقاص ، وصورة الطفل الباكي ، ولوحة الجدول الجاري ، التي اشتغلتها بالكانفاه ذات يوم ، من بين كل تلك الأشياء ، بقيت صورة الأب بنظراته الهادئة تطل عليهم من مكانها ، كما لو كانت قد ارتدت طاقية الاخفاء ، فلم يقتربوا منها ويحطّموها كما فعلوا ببقية الأشياء . تنّهدت المرأة ، ونظرت إلى عيالها المنكومين في أقصى الركن ، بجانب بعضهم ، وقد ألجمتهم المفاجأة ، بينما وقف مصطفى يحاول إخفاء اضطرابه بطقطقة

أصابعه ، وعيناه تجولان في المكان ، حتى اصطدمتا بعينيها ، فغرزت نظراتها فيه ، وهي تعلن :

ـــ أصلك أس البلاوي ... شفت آخرتها !؟

أطرق برأسه إلى الأرض ، بينما أخذ يستند بظهره إلى الحائط ، أسفل صورة أبيه ، مفتّشاً بيده في جيب منامته ، بحثاً عن السجائر والكبريت ، فلما وجدها ، أشعل واحدة ، وهو ينظر إليها بعتاب ، وهمس لأخته :

ـــ وحياتك ياسوسن اعملي شاي .

كان متيقّناً أنها ستبدأ بتلاوة ماتيسّر من سورة الزجر والتبكيت بعد قليل ، فلم تكن هذه هي المرّة الأولى التي أسمعته فيها ذلك ، لكنه ، قرّ قراره ، ألا يرد عليها أبداً ، مهما قالت ، وشتمت ، وبلغ بها الأمر ، فالوضع اختلف الآن عن كل المرّات السابقة ، لأنهم جاؤوا هذه المرة يفتّشون ، ويبحثون بأنفسهم ، ويطلبون ابنتها ، وهي معذورة ، على أي حال ، لأن موقفها صعب ، فهذه أول مرة تواجه مشكلة من هذا النوع .

لم يخب ظنه كثيراً ، فقد فكّت منديل رأسها ، وأعادت تكويم شعرها المشوش داخله بإحكام ، بينما بلغت أرنبة أنفها ، وطرفي أذنيها ، حالة الإحمرار القصوى ، فأخرجت صوتاً جافاً قاسياً ، وبدت كما لو كانت تكلّم نفسها ، بينما أتون غضبها يجعلها تخبط بكفّيها على ركبتيها ، بين الحين والحين .

ـــ يعني ، ياناس ، أقطّع نفسي .. ناقصة . همّ فوق همّي .. أقول يوم لقدّام ، أبصّ ألاقي مصيبة حطت على دماغي .. والله حرام .. حرام يامؤمنين .

استقرّت غصّات في حلوق العيال وقد رأوا أمّهم يعتصرها الألم ، وبدأت تباشير دموع في مقلهم ، فشعرت أن كلامها قد بدأ يفعل مفعوله معهم ، فواصلت :

ـــ أصلك ، يامصطفى ، من يومك جلّاب البلى ، من ساعة زرع بذرتك في بطني ، وقبل نهاية الحول مات خالك ، وأمّ حسن جارتنا جاءلها شلل ،

وعمري ماشفت أي يوم حلو بعد ما خلّفتك ، أبداً .. ياساتر .. ياساتر منك .

ابتسم مصطفى ، وأجهض إخوته ابتسامات وشيكة على شفاههم ؛ اقترب منها وأخذ يربت عليها ، ويقبّل رأسها ، مطيباً خاطرها ، وهمس لها .

ـــ ماشي ياأم مصطفى .

جاءت سوسن ، ووضعت أكواب الشاي ، أخذت تعيد ترتيب الصالة ، فهبّ اخوتها لمساعدتها بهدوء .

لان قلبها ، وتفجّر حريق صدرها المكتوم دموعاً ونهنهات تداخلت مع كلماتها :

ـــ يعني أنا ناقصة ، عيشتي شقا في شقا ، حتى تتعلموا وتبقوا أحسن الناس ، على أيديكم ، محنية على المكنة ، ليل نهار ، لأجل قرش زيادة ، يبقى « نواية تسند الزير » ، مع معاش أبوكم ، وآخرتها ، تضيّعوا أرواحكم في السياسة ، وشغل السياسة ؛ طيّب ، انت يا مصطفى رجل ، تقدر تحط رأسك مطرح ماتحط رجليك ، لكن أختك هدى بنت ، تبقى مصيبتها مصيبة ، البنت تضيع يامصطفى ، أختك ضاعت يامصطفى .

يبدو أن هذه الفكرة كانت غائبة عنها ، فأخذت تدبّ على صدرها ، بوجل ، قائلة : يامصيبتي ياحبيبتي ، وأخذت تنشج بعنف .

جرت سوسن لتحضر منديلاً لأمها ، التي بدأت تمسح دموعها بطرف جلبابها ، قفز أرنب ، إلى وسط الصالة ، قادماً من المطبخ ، فحاصره العيال ، محاولين إمساكه ؛ انتهز مصطفى الفرصة ، وقال لها بحزم :

ـــ هدى بمليون واحد ، روقي ولايكن عندك فكر ، كلها يومين وترجع للبيت ، خلّيكِ شديدة ؛ من شافك وهم هنا ، قالبين الدنيا ، وأنت ترعقين فيهم ، يقول أنك حديد ، صلي على النبي ، واستهدي بالله .

حمل إليها كوب الشاي ، بينما أخذت تهمس لنفسها : ونعم بالله . ثم رشفت رشفة طويلة ، ووضعت الكوب بجانبها على الأرض ، وراحت تفهمه

أن آخرة جريه ومحه ، هو وأخته وأمثالهما ، لايمكن أن تجلب نتيجة ، لأنهم يحاولون وضع رأسهم برأس الحكومة ، والحكومة عندها قوّة وعسكر ، وأنهم لابد أن يكونوا ، بقدّها في القوّة والشطارة ، وقالت له أنهم كالذي ينطح حائطاً برأسه ، فلا ينوبه إلا كسر دماغه ، وبكرة يشوف ويعرف . فلما قال لها أن أجمد حائط يمكن هدّه ، أيضاً ، وضعت كوب الشاي ، الذي بيدها ، على الأرض ، مرّة أخرى ، وعقدت حاجبيها بغضب ، وصرخت :

ـــ هل أنت ناو تعمل عمل أبوك وتخرب بيتنا مرّة ثانية ، طيب ، والله العظيم لأترك لك البيت ، وخلّيها تدقّ معك مطرح ماترسي ، يامصطفى ، لكن فرجني الزجولة ، وأكّل اخوتك ، ياشاطر .

همّت أن تقوم خارجة ، اعترضها العيال ، في وسط الصالة ، قبل أن تتقدم خطوة ، وازتموا عليها باكين ، وهي تقول : ابعدوا عني ، غلبت فيكم ، كلكم عاملين عصابة مع بعضكم ، وكل واحد منكم يتستر على الثاني ، آه ، يا أولاد الذين ، ودين أمي ، من بكرة مالكم إلا العين الحمراء .

نجح العيال في إجلاسها مرّة أخرى ، جاء أصغرهم ، ونظر في عينيها ، وهو يقبّلها هامساً في حنان .

ـــ خلاص ، أقعدي .

نكست رأسها في ضعف ، وقالت لهم بهدوء ، وقد تحلقوا حولها : أبوكم ، زمان ، ترك المصنع ، من تحت رأس مشكلة من الصنف إياه ، ومصطفى عارف الحكاية ، من زمان ، فلو كان أبوكم ، الله يرحمه ، في الدنيا لحدّ اليوم ، وبقي في المصنع ، لكان حالنا غير الحال ، وكنّا وفّرنا على أنفسنا الهم .

أصرّ الصغير على سماع حكاية أبيه ، من طق طق ، للسلام عليكم ، تنهّدت ، وقالت له : ياسيدي ، لما كان أبوك يشتغل في مصنع ، يملكه واحد خواجه ، أيام زمان ـــ وهي ، حكاية من سنين بعيدة ـــ اشترك في إضراب مع العمّال ، وطالبوا بمطالب تحسّن معيشتهم ، وصاحب المصنع ، كان ابن حرام ، ولئيم ، فقال لهم أنه لايمكن أن يوافق على مطالبهم ، ومر شهر ، ويزيد ، ولما

ساءت الأحوال ، قالوا نفكّ الإضراب ، لكنّ ابن الحرام شرط عليهم الرجوع للمصنع وعلى رؤوسهم طرح سود ، فامتنع أبوك ، ومعظم العمال ، وواحد منهم نوى أن يقتل الخواجه من شدة غيظه ، لأن الخواجه أراد أن يذلّهم ، ويمرّغ رؤوسهم في التراب ، بسبب أن البلد ضيّقة ، يعني كان يحب أن يخلّيهم فرجة البلد ، وأن يصيروا قدّام الناس من النسوان ، ثم أن والدك ، لما ضاق به الرزق ، أخذنا وخرجنا من البلد ، بعد أن تركنا أهلنا ، وحالنا ، وجاء بنا إلى هنا ، يلقط رزقه ، من أية ناحية تجلب له ولنا لقمة عيش ، لكن بعدها بحوالي خمس سنين مات أبوك ، وترككم كومة لحم في رقبتي .

بكت بحرارة وهي تترحّم على زوجها ، فبكى العيال ، بينما ظل مصطفى ، واجماً ، يتأمل صورة أبيه ، مفكراً في أمه ، التي تبكي الآن ، بينما كانت صلبة قويّة ، منذ قليل ، عندما داهم العساكر البيت بحثاً عن أخته ، التي اشتركت في مظاهرات الجامعة ، طوال الأسبوع الفائت ، وكيف أنّها ردّت على الضابط بتحدٍ وسخرية ، لمّا قال لها أن ابنتها شيوعية ، فقالت له : أصل ، أنتم ياحكومة ، لمّا تكرهوا أي إنسان تحطّوا فيه القطط الفاطسة ، ثم أنها أخذت تقود الضابط والعساكر إلى كلّ مكان ليفتشوه ، وهي تسبُّ الحكومة وتلعنها ، معلنة أن « ربّنا نزع الرحمة من قلوبهم » لأن الطريقة التي يُفتشون بها لا يمكن أن تكون إلا طريقة كفرة قلوبهم من حجر . وكان الذي أعجب مصطفى ، منها ، أنها لم تبكِ ، أو تولول ، طوال فترة وجودهم ، وأنها تماسكت ، حتى لاتدعهم يرون دموعها ويشمتون بها .

ابتسم وقد غلبه شعور قوي بالإشفاق عليها ، وكان يسيطر عليه إحساس بأنها كبيرة ورائعة ، وينبوع متدفق من الحنان الجميل ، خصوصاً عندما قالت لأخته سوسن ، لمّا لاحظت أن الولد الصغير قد بدأ النوم يداهمه :

ـــ سخّني لقمة للعيال بسرعة ياسوسن ، قبلما يناموا .



فأر أبيض صغير

تلونت شارة المرور الضوئية بالأحمر ، فتوقف طوفان العربات المجنونة ، الذي لا ينقطع ، لتندفع كتلة بشرية عابرة الطريق على عجل ، مما جعل حسنيّة تعتدل في وقفتها وترفع عقيرتها صائحة :

ـــ جرّب وشوف .. بختك بشلن .

أخذت تكرر نداءها مرات ومرات ، ولما لم يتوقف عندها أحد ، ألقت للفأر المنتظر في قفصه قطعة من الخبز الجاف ، ثم أخذت تتطلع من جديد إلى شارة المرور الضوئية ، انتظاراً لزبائن متوقعين ، بينما جالت برأسها الأفكار ذاتها ، التي أخذت تلحّ عليها منذ عدة أيام ، ومازالت تنغّص عليها حياتها ، حتى هذه اللحظة : « قدّري يابنت أن « عم حسن » طاب ، وقام على رجليه ، أربعة وعشرين قيراطاً ، يبقى كأنك ياابوزيد ماغزيت » ، « طيب افرضي أن « عم حسن » وافق أن يجلب لك عدّة شغل ، لمّا يقتنع أنك ناوية تلقطي رزقك في مطرح بعيد عن الخارطة كلها ، يبقى المشكل موجوداً ، والعقدة ظلّت في المنشار ، لأن العدّة محتاجة فلوس ، وهو يمكن أن يطلع في العالي ، ويقول فتح ونصر ، لأنك عارفة أنه يموت على القرش ولا يمكن أن

يفرّط به » .

زفرت بضيق ، وشعرت بغضب بالغ من زوجها ، لدرجة أنها تصورت أنه لو ظهر قدّامها في هذه اللحظة ، لشالت أكبر حجر ، ورمته عليه لتدش به دماغه ، وتشرب من دمه ، لأن كل الغلب الذي تعيشه جاء«ا من تحت رأسه ، بعد أن تركها كالوقف فلا هو طلقها ، ولا هو عاد إليها ليحمل همها ، ويشعرها أنها واحدة تعيش في الدنيا كبقية الخلق .

أحست أن الدنيا ، في عينيها ، أضيق من خرم إبرة ، فتركت الفأر بقفصه على الصندوق الكرتوني الذي تستخدمه كمنضدة ، وسارت خطوات حتى وصلت إلى الصبي الجالس أمام فرش تناثرت عليه أربطة الأحذية وعلب الكبريت والأمشاط البلاستيكية ، وقالت له وهي تكظم غيظها :

ــ هات نفسين والنبي ياعبد الرحيم .

سحب الولد نفساً عميقاً من سيجارة بين شفتين لم يخط شاربهما بعد ، بحركة استعراضية ، يبدو معها كرجل صغير ، ثم رفع رأسه وقدّم لها السيجارة ، بينما كانت عيناه تجوبان تفاصيل جسدها أسفل الجلابية التي بدت شفافة بعض الشيء بفعل نور الشمس الصباحي ، ثم قال لها وهو يتشاغل برصّ مرايات صغيرة على فرشه :

ــ خليها لك كلها .

شكرته بعد أن ملأت صدرها بسحبة طويلة من الدخان ، وسارت عائدة إلى الفأر ، ولما شعرت أنها استراحت قليلاً ، أخذت تنادي من جديد :

ــ جرّب وشوف .. بختك بشلن .

في لحظات ، لم تعرف ماالذي حدث بالضبط ، كأن القيامة قامت فجأة ، حيث توقفت بسرعة أمام الرصيف سيارة رمادية ضخمة ، ونزل منها في سرعة البرق ، عساكر وضباط ، لتتطاير بعد ذلك في الهواء علب كبريت ، وورنيش ، ومفاتيح معدنية ، وأحذية بلاستيكية ومسامير ، وأربطة أحذية ، واختلط الضرب بالصراخ بالجري بالزعيق ، وكان العساكر يجمعون الأشياء من الباعة بسرعة خاطفة ، ويقذفون بها في جوف السيارة الرمادية الضخمة ،

ولما رأت حسنية الفأر الأبيض يدور دورة كاملة مع قفصه في الهواء ، ثم يختفي داخل السيارة ، تيقّنت تماماً أنهم عساكر المحافظة ، فلطمت صدرها ، وصرخت بأعلى صوتها :

ـــ يامصيبتي ياناس !.

اندفعت كالمجنونة في اتجاه السيارة تحاول تخليص الفأر منها ، واستعادته من جديد ، لكنها تلقّت لطمة ، من يد مجرّبة ، على خدّها ، أدارت رأسها ، فأخذت تسبّ وتشتم ، والدموع تسيل من عينيها ، حاولت مرة أخرى أن تستعيد الفأر ، فاندفعت تطبق بيديها على يد شاويش عجوز ، محاولة إبقاءه ، قائلة له أن الفأر أمانة في رقبتها ، وأنها تجري به على رجل عجوز مثله لكنه مريض ، و « إلهي ، يخليك لعيالك ياشاويش ، ويكفيك شر الطريق هات الفأر ، لأن ثمنه الشيء الفلاني ، ومثله عزيز وجوده » ، وقالت له أنها ستضطر لدفع ثمنه لصاحبه لأنه رأس ماله . لكن الشاويش كانت أذنيه واحدة من طين وأخرى من عجين ، فسحب يده من بين يديها بعنف ، وقال لها : غوري ، وإلا رميتك فى السيارة وراء الفأر . وانشغل عنها بلمّ بقية الأشياء ، التي تركها أصحابها من الباعة وفروا ، فوقفت تنظر ، وتخبط على رأسها في بأس ، لكن سرعان ماواتتها فكرة عندما رأته يشعل سيجارة، ويضع يده في جيبه . فمشت إليه لتدس في يده عشرة قروش خلسة ، وهي تعدل من وضع طرحتها ، وتهمس له :

ـــ إلهي يجعل لك في كل خطوة سلامة ... والصندوق الكارتون والنبي .

ووقفت تنتظر ، بعدما أخبرها أنه سيفعل عندما يبتعد الضابط قليلاً حتى لا يلاحظه ، وحاولت أن تبدو غير مبالية كلما مر أمامها ضابط أو عسكري ، بينما كانت تفكر في حاجات الناس ، التي أخذتها الحكومة ، وهي كل ماعندهم ، يشتغلون به ليقوتهم ، واستغربت جداً من أمر الحكومة التي لاتكف عن ترصد الناس الغلابة ، وتضع نقرها من نقرهم في كل كبيرة وصغيرة ، ولا ترحمهم ، ولا تترك رحمة ربنا تنزل عليهم ، وهي عاملة مشكلة لأن الناس واقفة تفتش عن حسنة مخفية ، رغم أن السكة واسعة . « الناس ماشية لحال سبيلها ؛ والبياعين لم يدوسوا للحكومة على طرف ، كما يفعل

أصحاب الدكاكين الذين يشغلون الأرصفة والشوارع ببضاعتهم ، وسياراتهم . تصعبت ، واستعادت في ذهنها ذلك المثل الذي يقول أن الذي ليس له ظهر يحميه يضُرب على قفاه .

تكهرب وجهها ، فجأة ، عندما عاد الشاويش من العربة ، يد من وراء ويد من قدام ، فاندفعت باتجاهه متسائلة ليقول لها :

ــ القفص انكسر ، والفأر هرب .

ــ ارتخت مفاصلها ، وهرب الدم من عروقها ، فأخذت تدبّ بيدها على صدرها ، من جديد وصرخت :

ــ ياخرابي ياأمي !.

ثم جلست على الأرض ، تبكي وتولول ، فنصحها الشاويش أن تترك المكان بسرعة ، وتروح لأن الضابط لو شافها عاملة مناحة سيتضايق منها ، ويمكن يلمّها في السيارة مع الذين لّمهم ، لأنهم لايحملون بطاقات ، وربما لبّسها تهمة ، وتبقى حكايتها حكاية منيّلة بنيلة ، فهبّت واقفة من الخوف ، وبدت كالتي مات لها ميت ، وراحت تجرجر رجليها ، وهي تفكر في المصيبة التي طلعت لها من تحت الأرض ، ولم تكن أبداً على البال والخاطر ، وحسبت الكلام الذي سوف تقوله وتعيده « لعم حسن » ، جارها صاحب الفأر ، فهي الوحيدة ، من بين كل الجيران الذين يسكنون في حجرات البيت ، التي أستأمنها على الفأر ، وعلى ماله ، وطلب منها لمّا مرض ، وبقي عاجزاً في فراشه ، أن تخرج وتسترزق بالفأر في السكّة ، كما كان يفعل ، ويبيع به للناس الحظ والنصيب ، ثم أن المشكل سيكون أكبر لمّا يعرف أنها خالفت كلامه ، ولم تقف بالفأر بجانب سور الجامعة ، لأنها طمعت ، ووقفت في الشارع الكبير على الرصيف ، مع بقية الباعة . الولد عبد الرحيم ، هو الذي أشار عليها بذلك ، وأوهمها أن الإيراد في الموقع الجديد أفضل ، لأنه قريب من الشارع العمومي ، ثم أن « عم حسن » لن يصدقها ، لأنه منذ ثلاثة أيام سألها عن الشهر الذي سيهل ، فلما قالت له أنه أمشير ، طلب منها أن تشد حيلها في الشغل ، وتهم بعض الشيء ، لأن هذا يعني أن الموسم قد بدأ ، وامتحانات

الطلبة قربت ، يعني ، بقوا طالبين أن يشوفوا بختهم أكثر وأكثر .

بكت بحرقة . وشعرت أن ربنا انتقم منها لأنها اقتطعت بعض الشئ من الإيراد ، فخلال الأيام التي مرت أخيراً ، كانت تخبىء ربع جنيه ، كل مرة ، من الفلوس لروحها ، ولا تقول عليه لعم حسن لكن هذه الفكرة سرعان ماطارت من رأسها ، لما تذكرت أن يده ماسكة عليها ، ويعطيها القرش بالقطّارة ، رغم أنها تقف طوال النهار ، وفي الآخر يمدّ لها يده بخمسين قرشاً ، علماً أنها لاتقصر فى طلباته ، عندما تعود آخر الليل فتغسل له ، وتطبخ ، وتؤكله اللقمة بيدها ، لأن يده أصبحت ترتعش ، وصار ضعيفاً جداً ، والأكثر من هذا أنها محتملة كلام النسوان عليها في بقية البيت ، لأنها داخلة خارجة من عنده ، وهي ساكتة لأن الوضع مع « عم حسن » أفضل ألف مرة من وضعها السابق ، لما كانت تسرح في المواصلات بعلب اللبان ، والأمشاط ؛ على الأقل صارت واقفة بالفأر في مكان واحد ، ولم تعد تسمع كلمة وسخة ، من محصّل أو سائق أتوبيس ، تسمّم بدنها كل ساعة والثانية ، ولم تعد متعرضة طوال النهار للشتيمة وقلة القيمة .

كان يشتعل برأسها أتون نار ، بينما هي سائرة في طريقها إلى البيت ، وبدت آلامها بلا حدود ، ولو أنها صادفت ، المخفي زوجها في هذه اللحظة لقطعته إرباً ، وجعلته كفتة ، لأنه سبّب لها كل هذا العذاب الذي تعيشه منذ أن تركها ، واختفى ، ولأنه قطعها عن أهلها منذ تزوجها في البلد قبل سنوات بعيدة ، وجاء بها إلى هذه البلد ، التي لايعرف فيها النفر رأسه من رجليه ، ولايوجد بها من هو مستعد لأن يرفع نظره ، ويبصّ في عين الماشي قدّامه في الطريق ، فأمها ماتت منذ زمن ، وزوجها لايعقل أن يسأل عنها أبداً ، لأنه كان يمقتها مثلما كانت تمقته ، أما عم حسن ، الحنون عليها ، والوحيد الذي لها في هذه الدنيا ، فسوف تفقده إلى الأبد بمجرد أن تصل إلى البيت ، وتقول له أنها ضيّعت لقمة عيشه ، وتركت الحكومة تخطف الفأر ، وربما لن يصدقها إذا ماحلفت له بتربة أمها . وقالت له أن الفأر هرب من الحكومة ، والعسكري لم يجده ، والمصيبة أنها كانت تبني أمالاً على « عم حسن » ولذلك كانت تحتمل أمارته عليها ، وتصبر على طلباته الكثيرة ، التي تجعل روحها في منخارها ،

أحياناً ، لأنها كانت تحلم أن يحط في عينه حصوة ملح ، في يوم من الأيام ، ويقول لها : « لو متّ ، يابنت ياحسنية ، خذي كل حاجة عندي ، لأني مقطوع من شجرة ، والحكاية على يدك ، وأنت أولى من أي كائن في الدنيا ، بالمرتبة والبطانية ، والكرسي ، وبقية الحاجات ، لأنك بنت طيبة ، فضلت تحت رجلي ، وبقيت في خدمتي ، كما لو أنك ابنتي ، وطالعة من صبايبي بحق وحقيق ، ثم أن القرشين الموجودين في سيالة الجلابية يمكن أن تأخذيهم ، واشتري لك جلابية حلوة ، وقميص نوم نايلون جديد » .

سحت دموعها أكثر ، وهي تتذكر كل ذلك ، وتعضّ على شفتها بمرارة ، بينما كانت تقترب من باب البيت ، وتفكر في مبتدأ الكلام ، وفاتحته ، مع « عم حسن » وتتصور شكله لمّا يعرف ، فيغضب ويقلب خلقته ، ويقول لها : « غوري من قدامي يامنحوسة ياأس الفساد ، ياحرامية ، ياجلّابة المصايب ، رجلك سابك لأن خلقتك تقطع الخميرة من البيت » . كانت قد وصلت لفناء البيت ، فبكت أكثر وأكثر ، ووجدت لمّة أمام باب حجرة « عم حسن » وصاحبة البيت واقفة تسد الباب بجسدها الضخم وتقول :

ـــ إياكم أي واحد منكم يقرب منه لحينما يصل دكتور الصحة ويكتب له الورقة .

وعندما رأت حسنية تقترب منها ، والدموع تملأ عينيها ، قالت لها مدهوشة ، أنت عرفت الخبر ياحسنية ؟! بنت حلال والنبي ، لأنك وصلت بسرعة ، هاتي فلوس الإيراد لنجهّز طلبات الدفن ونشيّع المرحوم ، بُكرة الصبح ، إن شاء الله ، ثم استدارت لبقية الجيران ، وقالت لهم : إياكم أن يمس نفر منكم ، أي شيء يخص « عم حسن » لأني ناوية أبيع موجوده ، بإذن الله ، بدل إيجار الشهور المتأخرة في ذمته لي .

بلاغة الغلابة (*)

د. فريال غزول

(*) جزء من بحث بعنوان (بلاغة الغلابة) للأستاذة د . فريال جبوري غزول ــ قسم الأدب الانجليزي والمقارن ــ الجامعة الأمريكية بالقاهرة والمقدم للمؤتمر الدولي الثاني لجمعية تضامن المرأة العربية في القاهرة ــ نوفمبر ١٩٨٨ ــ بعنوان « الفكر العربي المعاصر والمرأة ».



(...) الكاتبة المصرية سلوى بكر لا تنتمى الى طبقة مستحكمة ولا جنس حاكم ولا زمرة متسلطة . فهى مهمّشة على مستويات متعددة . تخرجت سلوى بكر من جامعة عين شمس بليسانس عام ١٩٧٢،ودرست النقد فى المعهد العالي للفنون المسرحية ، وتمارس الآن الكتابة الابداعية وهى عاطلة عن العمل . يبدو أن لا صحف المؤسسة ولا صحف المعارضة تريد أن توظف مواهبها ، هذا بالرغم من اجماع النقاد الجادين فى الوطن العربى كله بموهبة سلوى بكر القصصية . ولكن للتهميش مزاياه فهو يترك لأديبتنا نعمة الانتماء الى وطن وجماعة بدون الانخراط فى مؤسسة وسلطة . وهذا يفسح مجال الرصد والرؤية كمن يقف على محيط الدائرة وأطرافها ، فلا هو خارجها لا يرى مايجرى فى الداخل ، ولا هو فى المركز تعميه مركزيته ومصلحته عن رؤية الكل . فمنظور المهمّش أوسع من منظور صاحب المصلحة وأعمق من منظور الغريب ، فالمهمّش يتواجد فى موقع يسمح له باختراق القشور والمظاهر ليصل الى الجوهرى والجذرى ، أى أن موقعه يؤهله للراديكالية .

وعندما نصف أعمال سلوى بكر بالراديكالية فليس المقصود من ذلك أن صاحبة هذه الأعمال تناضل مع فرقة وتجارب أخرى بل المقصود أن أعمالها تنبش المظاهر وتنقب عن الجذور ، لا تقتنع بالظاهر والسائد وتبحث عن الباطن والأصيل . وفى حقيقة الأمر أن كلمة « راديكالية » تعنى بالضبط « الجذرية » فهى مشتقة من الكلمة اللاتينية « راديكس » (radix) التى تعنى « الجذر » ، وهى تنطبق حرفيا وابستمولوجيا على مساعى كل من لا يكتفى بالمشاع والظاهر ، بل يسعى الى التوصل الى القضية الجذرية أو الى الوصول الى الجذر الصحيح لا الجذر الخطأ ، كما فعلت نونة"بطلة قصة سلوى بكر .

لقد نشرت سلوى بكر مجموعتين قصصيتين أولاهما بعنوان زينات فى جنازة الرئيس[1] (على نفقتها الخاصة فلم تتبنها دار من دور النشر العديدة !) ، وبالرغم من أنها المجموعة الأولى لأديبة نكرة فقد رحبّ بها مجموعة من النقاد فى مصر وخارجها ، وقدمتها ناقدة تونسية على أساس كونها نموذجا . وأما مجموعتها الثانية مقام عطية[2] فتحتوى على رواية قصيرة بعنوان المجموعة وثلاث قصص .

لقد كتبت الناقدة التونسية نجاة العدواني عن مجموعة سلوى بكر الأولى ما يلي :

> ... رغم أن الكاتبة تعالج قضايا نسائية إلا أنها تطرح هذه القضايا فى سياق اجتماعى وسياسى . ففى قصة « أم شحتة التى فجرت الموضوع » مثلا ، تبين لنا من خلال هذه الشخصية النسائية العظيمة أن التنظيمات السياسية ممثلة بالمناضل السياسى حسين دباب كانت فى انتفاضة يناير

المصرية متخلفة عن الحس الشعبي والفعل الجماعي الذى تحرك بعفوية ضد السلطة اثر ارتفاع الأسعار مما أوقع الأحزاب السياسية فى حيرة وارتباك أمام الموقف الجماهيرى الذى تجسد بالانتفاضة التى تحملت أحزاب المعارضة نتائجها رغم أنها لم تكن الداعية اليها أو الفاعلة فيها . وهكذا كانت المرأة رمزا عميقا للجماهير المصرية[٣] .

وكتب الناقد المغربى محمد برادة عن مجموعة سلوى بكر الثانية قائلا :

ان التجريب التشكيلي فى « مقام عطية » يستدعى الاهتمام والتحليل لأن الكاتبة استطاعت من خلال توظيف عناصر تنتمى الى الحاضر (الريبورتاج) أن تقودنا الى اعادة تأويل الماضى وتقييمه من منظور أسئلة المستقبل .. وتتضافر بعض الأصوات داخل الحكى الأمثولة لتخرجه من دائرة القول ، الى مساحة التخييل والترميز[٤] .

وقارىء قصص سلوى بكر كثيرا ما يجد الشخصية الرئيسية امرأة وامرأة مهمّشة ، مسحوقة ، من الطبقة الكادحة ولكنها امرأة لم يقمعها الخطاب الذكورى السائد ولم تفقد قدرتها على المبادرة . وكثيرا مانبدو هذه المرأة البطلة غريبة الأطوار عجيبة الشأن للآخرين لأنها لا تتقولب كما يراد لها أن تفعل ولا تتصرف كما يتوقع المجتمع ، ولهذا تتميز بطلات سلوى بكر بشطحة من الجنون وبشىء من الطفولة . فهن لا يخضعن للمألوف ويخالفن السائد كما يفعل طفل لم يتأقلم للضغوط المهيمنة ومنطقها التقعيدى . وهذا ما جعل الناقد اللبنانى حسن داوود يقول أن بطلات سلوى بكرهنّ امرأة واحدة[٥] .

وتفسر سلوى بكر تناولها لعالم المرأة فى أعمالها فتقول :

المفترض أن يتناول الكاتب فى عالمه ما يعرفه ، يلمسه ويحسّه ، ويستطيع التعبير عنه . أظن ، بسبب كونى امرأة عربية : أى عضوة فى مجتمع ذى طبيعة فصامية صارخة ، على أساس نوعى جنسي ، فإن الكتابة عن المرأة كحالة انسانية ، يقترب من الوضعية الحتمية ، لذلك فعندما أكتب أجدنى أتناول شخصيات نسائية بشكل لا شعورى[٦] .

وبالرغم من تمركز قضية وشخصية المرأة فى أدب سلوى بكر فهى تصر على أنها لا تؤمن بأدب نسائى فتقول أنه تعبير رجالى « ليس رجولى » .[٧] وتضيف فى حوار آخر :

كتابة المرأة عن المرأة من الممكن أن تسير فى طريق مسدود اذا أصرت المرأة على طرح أدب المرأة باعتباره أدبا موجها ضد الرجل . ومن ناحية

ثانية أنا أظن أن أدب المرأة فى مجتمعنا المتخلف يلعب دورا تبشيريا وتنويريا يساهم فى تحرر ليس المرأة فقط ولكن الرجل أيضا . لأن ما تحتاجه المرأة كى تحقق ذاتها فى مجتمعاتنا يحتاجه الرجل أيضا فالرجل يحتاج الى الاستمتاع بوجود المرأة كشريكة حياة ، وعقل يتفاعل ، ووجدان يأخذ ويعطى ، والعكس صحيح تماما[8] .

نرى مما سبق أن سلوى بكر ترفض نسوية الأدب عندما تستخدم لتعزيز الانفصام بين الجنسين ، وترى أن كتابات المرأة يمكن أن تخفف من وطأة الفصل النوعى بين الجنسين بتقديمهما على أساس تكامل انسانى لاصراع جنسى . وهكذا تلغى سلوى بكر تناقض الجنس وترفض قضية المرأة منعزلة عن قضية الرجل والمجتمع ككل . وهى ترى أن تحرر المرأة لا يتم عبر مؤشرات ظاهرية بل عبر تغير الممارسات والعلاقات والحساسيات ، ولهذا فهى تقدم فى أعمالها أنماطا انسانية لا كمثال متعال ولا كنموذج بل كمفتاح لمراجعة النفس والقيم ، لاعادة تقييم دور المرأة وبنية المجتمع ووظيفة الفن . فهى لا تقدم لنا بطولة الملاحم والعساكر والفحول ، بل بطولة الانسان العادى فى صراعه مع قوى القهر والاحباط . وهى تبتعد عن النبرة الوعظية فى كتاباتها وتكتفى بطرح الأسئلة التى تؤرقنا لجذريتها وغيابها عن الخطاب السائد ، تاركة بذلك الباب مفتوحا لاحتمالات متعددة ولحوارية تبحث عن حلول .

الهوامش

(١) سلوى بكر ، زينات فى جنازة الرئيس (القاهرة : بلا ناشر ، ١٩٨٦) .
(٢) سلوى بكر ، مقام عطية (القاهرة : دار الفكر ، ١٩٨٧) .
(٣) نجاة العدوالي « نموذج الأدب النسائي الذي أدعو إليه » الإعلان ، ١٩٨٦/١٢/١٦ .
(٤) محمد برادة ، « تجريب في الشكل وتوظيف للمحكى الشفوي » اليوم السابع ، ١٩٨٧/٦/١٥ .
(٥) حسن داوود ، « بطلات وامرأة واحدة وتاريخ غير منقطع » السفير ، ١٩٨٦/٢/٢٧ .
(٦) « حوار : القاصة المصرية سلوى بكر » ، الوطن ، ١٩٨٦/٩/٣٠ .
(٧) المرجع السابق .
(٨) « حوار : القاصة سلوى بكر » المجالس ، ١٩٨٧/٦/٢٧ .

فهـــــرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٣٦٣٩ / ٢٠٠٠

I.S.B.N 977 - 01 - 6899 - 8

مهرجان القراءة للجميع

